الرسالة الأولى

(قِصّة)

الطبعة الأولى

٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/١١/٤٠٣٨)

٩، ٨١٣
القضاة ، احمد حسن
الرسالة الاولى (قصة) احمد حسن القضاة.
عمان:دار الجنان للنشر والتوزيع ٢٠١٣
(١١٧) ص
ر.أ: (٢٠١٣/١١/٤٠٣٨).
الواصفات: / القصص العربية/ / العصر الحديث /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978 – 9957 – 551 – 76 – 6 (ردمك)



دار الجنان للنشر والتوزيع – عمان – الاردن هاتف: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١
dar_jenan@yahoo.com

الرسالة الأولى

قِصّة اجتماعية

تأليف

أحمد حسَن القضاة

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحوظة

كتبتُ هذه القصة عام ١٩٦٩م. وقد حالت ظروف شخصية آنذاك دون نشرها، وظلَّت حبيسةَ أدراج مكتبي تلك الفترة الطويلة حتى قُيض لها أن ترى النُور اليوم..

وقد ارتأيتُ أن أبقيها على تكوينها الأصلي من غير أن أضيف إليها شيئاً جديداً، سواءً في المضمون أو الأسلوب أو التعابير والألفاظ، تاركاً الحكْم للقرّاء، والنقّاد الكرام، إنْ لها أو عليها..

والله الموفق سبحانه

أحمد القضاة

«١»

«أُمّي العزيزة:

لكِ منّي تحياتي وأشواقي.. آملاً أن تصلك رسالتي هذه وأنتِ في أسعد أوقاتك، وأتم سعادتك.. داعياً الله سبحانه أن يبقيك ويحفظك..

أكتب إليك الآن من غرفتي المتواضعة في حي من أحياء دمشق الشعبية بعد أن عُدت ظُهراً من الكلية تغمرني السعادة، وتحيط بي البهجة، شاكراً الله تعالى أن أنعم عليَّ لمواصلة دراستي إلى هذا المستوى الذي يتمناه كل طَموح»..

وكنتُ قد الْتحقت بهذه الكلية - كلية الآداب - كما تعلمين، بعد الأخذ والرد الكثيْرين بين والدي وزوجته - ضرّتك - من جهة، وبيني أنا وأقاربي من جهة أخرى..

لقد أنجزتُ جميع الإجراءات المتعلقة بالقيد والقبول، واتخذتُ سكناي لدى عائلة محترمة، وسأبدأ منذ اليوم حياة دراسية جديدة، كُلها جدّ ونشاط، كي لا أخيّب ظنك فيَّ أو ظنَّ أقاربي الذين وقفوا إلى

جانبي وانحازوا إلى صفي.. متمنياً من الله تعالى التوفيق والنجاح..

أمّي الحبيبة:

كنتِ فيما مضى من الأيام تتمنين على الله تعالى أن يطيل في عمرك لتَفْرحي بأولادك عندما يكْبرون ويصبحون شباباً، كما فرحتِ بهم حين ولدوا، لتقرَّ عيناك بهم، وتكْمل سعادتك في هذه الأيام بتوفيقهم..

أجل.! وكنتِ تتمنين من الله أن يحقق لك أملك فيثمر صبرك ببلوغ أبنائك السن التي يستطيعون بها أيضاً (حمايتك) من قسوة الزوج وظُلم القدر..

أوَ ما كنتِ تقولين بهذا في دعائك يومياً بعد صلاة الفجر، وبصوت مسموع؟

وما كان صبرك وانتظارك لليوم الذي سنصبح فيه رجالاً وما كان تحملك لشتى أنواع العذاب، وصنوف الجور والإجحاف في وقت كنتٍ تستطيعين فيه هجر هذا الزوج وبيته لتذهبي إلى بيت أهلك تعيشين عندهم معزَّزة مكّرمة.. ما كان كل ذلك إلاَّ حفاظاً على سمعتك مِن أن تلوك بها أَلْسِنَةُ الناس ولتكوني بجانبنا خوفاً علينا من

عاديات الأيام وعواقب الزمن. فكان ذلك قرباناً منك لأجْل راحتنا، وتضحية لنيل سعادتنا وتلك – لعمْر الحق - هي صورة من صور الأمومة المقدسة التي باركها الله وأمرَ الناس بأن يقدّروها حق قدرها لسمو مكانتها، وجلال روعتها، وعظيم حنانها.. وبالتالي لشدة صبرها، وقوة تحملها في سبيل أبنائها.. فعجزَ أكثر الناس عن إيفائها حقها..

يا أمي العزيزة:

لقد كان أكْثرُ الناسِ من أقاربي لا ينْكرون لك فضلك في تحمل الصعاب من أجل راحة أبنائك، وحفاظاً منك على حُسن سمعتك وطيب معدنك.. وكانوا كثيراً ما يؤنّبون زوجك القاسي ويوبخونه على سوء معاملته لك ولأبنائك، ولكنه لم يَرْعَوِ ولم يرتدع عن غيّه وظلمه..

أما أنا يا أماه.!

أنا مَن كنتِ تظنين بأنني لا زلتُ صغير السن وقتذاك لا أعي لِما يدور حولي، ولا أدرك شيئاً من أمور الدنيا.!

فكثيراً ما كنتُ أتألم لألمك، وأبكي لبكائك، وأودّ بجدع الأنف

أن أنتقم من هذا الأب القاسي الذي لا يرحم.. ضارباً عرض الحائط بكل الشرائع والقوانين التي نادت باحترام الآباء من طرف الأبناء..

ولكنَّني ما كنتُ أقوى على فعْل ذلك لأسباب لا تخفى على كل عاقل..

فمنها حداثة سنّي، وحاجتي المادية لأبي لتأمين مستقبلي، ولمآرب أخرى كنت أضمرها في نفسي ولا أستطيع الإفصاح عنها في حينها.. وبالتالي لقداسة (الأبوَّة) التي جُبلنا على احترامها وإطاعتها مهما كانت الظروف.. ولكن..!

إذا كان الإله سبحانه قد أمهل والدي من أن يأخذ نصيبه من العقاب الوافي في الدنيا، فلن يهمله غداً، وسيذيقه الجزاء الكامل يوم موقفه العادل..

يا أمي الحبيبة:

إذا ما جلستِ في ساعة من ساعات فراغك بباب غرفتك لتستعرضي شريط ماضيك مع أبي..

وإذا ما تذكرتِ أيامك الحلوة والمرة مع زوجك المذكور..

وإذا ما مرت أمام خاطرك صورة تلك الظروف العصيبة فإياكِ

إياك أن تلْعني الحياة أو تشْتمي الزمن.!

إياكِ إياك أن تَسْخطي على الأيام.!

بل اشكري معي الله..

اشكريه يا أمي على حلو الحياة ومُرّها.. ولا تيأسي من رحمة الله، فإن رحمته قد وسعت كل شيء..

واصبري مرةً أخرى.. ومراًت..

واجعلي صبرك هذا امتداداً لصبرك الأول..

فإن الله مع الصابرين..

وإن الله لا بد سيعاقب الظالمين.. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]...

وختاماً: لكِ مني سلامي وأشواقي، وإلى شقيقي وشقيقتي قُبلاتي، وإلى جميع أقاربي تحياتي..

والسلام عليكِ ورحمة الله وبركاته

ولدك البار صالح

* * *

كانت هذه هي الرسالة الأولى التي كتبها صالح لأمه من سورّية بعد أن شاء الله تعالى أن يلتحق في جامعة دمشق طالباً في السنة الأولى بكلية الآداب - قسم اللغة العربية، ضمْن زمرة من الشباب الأردنيين بكليات الجامعة المختلفة حيث لم تكن الجامعات الأردنية قد أُنْشئت بعدُ..

وهي رسالة كما نرى عاطفية رقيقة من جهة، ومحزنة مبكية من جهة أخرى.

ولا عجب في ذلك.! فإن الذي كتبها هو واحد من أولئك البؤساء المنتشرين في هذا العالم.. وإن التي ستقرؤها أو المرسَلة إليها هي واحدة من أولئك البائسات أيضاً. وقد جمعتهما أواصر الرحم ووشائج البؤس والشقاء..

وهي رسالة مطولة إلى حد ما.. كما أن كلماتها وألفاظها تبدو كالقذائف الموجَّهة أو الحُمم اللاهبة.. بل كأنها وُجّهت إلى هدف معيّن، وقصْد محدَّد، بغضّ النظر عن قوة هذه الكلمات والألفاظ أو

ضعفها من الوجهة البلاغية والبيانية، لأن صاحبها – كما يبدو - لم يُعْنَ بمقاييس البلاغة أو موازين البيان، وإنْ كان بوسْعه – كطالب جامعي بكلية الآداب - أن يختار الكلمات المنمَّقة، والجُمل المنتقاة، والتعابير الفخمة ليضعها في أسلوب جزل، وقالب أدبي رائع، ولو اضطره ذلك إلى أن (يسطو) على أحد كتب الأدب فيسرقَ منه ما يشاء لرسالته تلك..

ولكن اهتمامه انصرف لتحقيق مضمون الرسالة وبلوغ هدفه من ورائها حتى وإنْ جاءت كلماتها سهلة متواضعة.

وقد يَسأل سائَل عن السبب الذي دعا صالحاً هذا لكي يرسل برسالته المذكورة إلى أمه في الأردن بَدلاً من أن يرسلها إلى أبيه... أو شقيقه مثلاً، كعادة الأبناء أو الأشقاء في مثل هذه المناسبات ولا سيَّما وأن والده ما زال – حتى كتابة رسالته - حيّاً يرزق، كما أنه يحْسن القراءة والكتابة..

فنجد الجواب في سياق الرسالة نفسها حيث بيَّن صالح فيها مدى علاقته بأبيه، وكيف (فترت) تلك العلاقة أخيراً لأسباب سوف نتبينها

فيما بعد.

ثُم قدَ يسأل سائل أيضاً فيما إذا كانت أم صالح هذه متعلمة أو تحْسن القراء ة والكتابة؟

فالجواب بأنها أمّية لا تحسن القراءة أو الكتابة أبداً.

ولكن ابنها حينما كتب الرسالة باسمها كان يرمي من وراء ذلك إلى أن تقع الرسالة في يد أبيه عن هذا الطريق غير المباشر، بعد أن تُطْلعه عليها أمه بسبب أميتها وجهلها بالقراءة، من غير أن تعْرف - طبعاً – مضمونها. وعندئذ سيعْرف والده كل أو جلّ ما يعتلج في صدر ابنه من مشاعر وأفكار فلعلَّه يعود إلى حظيرته السالفة..

المهم في الأمر أن صالحاً كان قد أودع الرسالة مع زميله وقريبه (أمين) الذي الْتحق أيضاً في الجامعة بكلية الحقوق ورغب أمين هذا في السفر إلى الأردن ليستكمل مع أهله بعض الإجراءات الخاصة بدراسته الجامعية كإحضار مزيد من النقود والحاجات، ثم يعود إلى دمشق بعد يوم أو يومين.

أما إذا شئت أن تعرف السبب الذي كُتبت من أجله تلك الرسالة، على ذلك النحو الغريب فإليك القصة:

«٢»

في قريـة متواضـعة مـن قـرى الأردن عـاش عايـد - والـد صـالح - ونشأ نشأة ريفية ساذَجة كغيره من أبناء القرى والأرياف قبْل قرْنٍ من الزمان..

كان والده قد توفي ولمَّا يَزل عايد في السنة الأولى من عمره.

ولمَّا كانت أم عايد في سن يخولّها الزواج بعد وفاة زوجها فقد كان عليهـا أن تتـزوج، وأن يبقـى ولـدها بعـد أن بلـغ الـسادسة مـن عمـره في كفالة ذوي زوجها الراحل؛ يقومون على تربيته والإشراف عليه إلى أن بلغ سن الرشد.

وهكـذا نـشأ الطفـل عايـد كـما قُلنـا نـشأة ريفيـة متواضـعة في زمـن قلَّت فيه الثقافة والوعي وأساليب الحياة المزدهرة بسبب طبيعة ذلك العصر بشكل عام، وبسبب الحُكْم التركي البغيض للبلاد العربية، وما رافقه - في أواخر عهده - منن شرور وآثام، وآفات اجتماعية واقتصادية وسياسية..

وكـان حظـه مـن العلْـم والـتعلّم قلـيلاً، وتفكـيره محـدوداً وحياتـه

بسيطة، وذلك راجعٌ طبعاً إلى (نوعية) الحياة في تلك الأيام وخلوها من المشاكل والتعقيد..

ومثْلما أراد الأتراك للعرب أن يقْضوا على روحهم الوطنية وحركاتهم التقدمية أرادوا لهم أيضاً التخلف وأن يخيم عليهم الجهل والفوضى والتأخر.. في شتى الميادين.

ولم يكن يوجد - والحالةُ هذه – مدارس بالمعنى الذي نعْرفه اليوم سوى كتاتيب بسيطة في القُرى تتولى تعليم الخط والحساب واللغة التركية، مضافاً إليها تحفيظ القرآن الكريم، وهذه الدراسة فيها ثلاث سنوات.. مع تعليم يسير لمبادئ اللغة العربية لا اهتماماً بهذه اللغة أو حُباً في الحفاظ عليها وتعليمها للناس بل (ستاراً) لتعليم لغتهم التركية، وطريقاً لكسب ودّ العرب وثقتهم. بل إن هنالك ما هو أدهى وأمرّ؛ فقد كانوا لا يعلّمون بهذه اللغة حسب قواعدها وأصولها الصحيحة، بل كانوا (يخْلطون) بها من لغتهم ألْفاظاً ومن العامّية العربية أيضاً، فتُصْبحَ جُملها عندئذ ركيكة ومعانيها مشوَّهة سقيمة، وتفقد مِسْحة الجَمال التي تنفرد بها عن غيرها من سائر اللغات، فتَفْسُدَ

بذلك بلَاغتُها وفصاحتها.. تماماً كما يُفْسد الخَلُّ العسَل..

ولا عجب في ذلك، لأن ضربتهم الاستبدادية الأُولى كانت موجهة إلى صميم هذه اللغة، حتى أننا رأينا فيها بعد ذلك استبدال كتابة لغتهم التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية.. جاهلين أو متجاهلين أنها لغة محمد ﷺ الذي يزعمون بأنهم على دينه.. وأنها لغة القرآن الكريم الذي يدَّعون بأنهم رافعو رايته.. غير مدركين بأن الله تعالى لن يميت هذه اللغة مادامت الأرض والسماوات قائمة..

* * *

أمَّا التعليم في المدن فكان يعادل - تقريباً - المرحلة الابتدائية في أيامنا هذه. وكانت مواده مكونة من دروس التاريخ والجغرافية والقرآن الكريم واللغة التركية واللغة العربية.

ومع ذلك فقد كان هذا التعليم البسيط - في نظرنا نحن اليوم - كثيراً في نظر الغالبية العظمى من الناس في تلك الأيام وخاصةً أهل الريف نظراً لجهلهم المطْبق، واعتقاداً منهم بأن التعليم يصْرف الأبناء عن الأرض والعناية بها، ويبعدهم عن رعاية أعمالهم الزراعية والريفية

المتشعبة..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعدم توفر الوعي العلْمي أو الثقافي فيما بينهم، ولوجود المستعمِر الذي شل حركة تقدمهم - إنْ رغبوا في التقدم - وأخَّر عن المسيرة ركبهم كما بيَّنا آنفاً.

أُلْحِق الصبيُّ عايد بكتَّاب القرية. وبعد أن قضى فيه مدة الثلاث السنوات المقررة غادره ليتفرغ للعمل في الفِلاحة. فكان يغدو ويروح مع الفلاَّحين من أعمامه وأقاربه، يفعل كما يفعلون، ويكتسب كل يوم درساً جديداً في الحراثة والزراعة والحَصاد وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالزراعة.

وأصبح شاباً مفتول الساعد، عريضَ الجبهة، طويل القامة، مكتمل البنية، معتدل العُود.

وتزوج بإحدى بنات أحد أعمامه الذين تكفلوا برعايته صغيراً، وهي الفتاة (أمينة) التي كانت تصغره سناً وتكسو حلاوة وجهها سمرة خفيفة.. ولم يكن لها حظ من التعليم طبعاً، لأنه إذا كان التعليم عزيز المنال على الذكور فمِن باب أَولى أن يكون عزيز المَنال على

الإناث.

وكان زواجه بها موفَّقاً. واستمر هذا الزواج الموفق سنوات.. إلى أن حدَث أخيراً ما قلَبه رأساً على عقب، كما سنَرى ذلك فيما بعد..

وتمضي الأيام..

كان عايد يقوم بعمله في أرضه بكل قناعة وسرور، وكانت زوجته أمينة تشاركه عمله بسرور وقناعة أيضاً... شأنهما في ذلك شأن جميع أهل القرية من رجال ونساء..

وتشاء العناية الإلهية أن ينتهي حكم الأتراك للوطن العربي كلّه - فقد كان في منحَدر أيامه الأخيرة - وأن تتلاشى بذلك تلك الإمبراطورية الغاشمة التي استنزفت طاقات العرب وعطلت سفينة تقدمهم عشَرات السنين..

«٣»

وفي ليلة من ليالي تموز (يوليو) من عام ١٩٤٠، وبعد أن عاد الحصادون من عملهم في الحقول اجتمعوا كعادتهم في مضافة[1] المختار[2] يسمرون ويتجاذبون أطراف الحديث حول ما يهمّهم من شؤون الدنيا والدين..

كانت الحرب العالمية الثانية مسْتعراً أوارها، تحصد الأخضر واليابس في طريقها. وكانت الضائقة الاقتصادية تعمّ العالم بسبب هذه الحرب، والمجاعات منتشرة، والأوبئة متفشّية.

قال المختار، وكان شيخاً جليل القدر، حلو الكلام، ذا صوت جهوري يلْفت نظر المستمِع إليه:

«يا قَوْم! لقد أصبحت حياتنا اليوم مهددة بالمجاعة والخطر. وما علينا إلاَّ أن نتدبر أمورنا كغيرنا من الناس بأسرع ما يمْكننا..

ها أنتم كما ترون تذهبون كل يوم إلى الحقول وقد لمستم بأنفسكم

---

(1) مضافة: ديوانية، مجلس.

(2) المختار: العُمْدة، شيخ البلد.

أن المحاصيل الزراعية لهذا العام لا تبشر بالخير؛ إذ كان قد قلَّ سقوط الأمطار فتأخَر الموسم عن وقته فشحَّت الأرض بعطائها لنا ولماشيتنا..

وثمة شيء أهم: فهذه الحرب العالمية قد أثَّرت في مجرى حياتنا وحياة الشعوب من حولنا.. فكأن الطبيعة والحرب قد تأبطتا الشر ليبارزا به الإنسان في هذه الأيام.!

فإلى جانب الفقر والمجاعة العالمية هنالك ارتفاع الأسعار وسوء الأحوال المعيشية بشكل عام. وقد تركزت أنظار الناس نحو نتائج هذه الحرب وما يترتب عليها من نصر وهزيمة بين المتحاربين.

و في كل يوم تصلنا أنباء متضاربة عنها. والذي يعنينا في هذه المنطقة من العالم أن اليهود – لعنهم الله – قد أخذوا يتجمعون من أطراف العالم ويهاجرون إلى فلسطين تحت حماية الإنجليز. وقد صمم الثُوَّار والمناضلون من عرب فلسطين ومن ورائهم المجاهدون والمتطوعون من أبناء الدول العربية والإسلامية على الحفاظ على الأرض، والدفاع عن الوطن، وعدم تحقيق إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وأقسموا بأن يضحّوا في سبيل بلادهم بكل مرتخص وغال..

ونتيجة لذلك فقد وقعت عدة اشتباكات بين العرب، وعصابات اليهود المسلحة، وقامت الثورات في المدن والقرى الفلسطينية..

ثم تابع المختار كلامه مسترسلاً وقد أخذته نشوة الحماس الديني والوطني.. فاحمرَّ وجهه وعلا صوته وقال:

«لقد سمعتم بأن المتطوعين والمجندين يفدون من البلاد العربية والإسلامية يلبّون نداء الجهاد والاستشهاد، يدفعهم إلى ذلك دافع الذود عن الوطن والشرف والدين..

كما سمعتم بأن باب التجنيد النظامي والاختياري في الجيش العربي الأردني مفتوح هذه الأيام على مصراعيه لمن يستوفي شروط الالتحاق بالخدمة العسكرية..

وإن الزمن الذي كانت تشمئز فيه نفوسنا من الانخراط في سلك الجندية، زمن الحكم التركي البغيض، قد ولىَّ ولن يعود. وأصبحت الخدمة العسكرية اليوم شرفاً ووساماً على الجبين لكل من يرتدي بزَّتها المميَّزة.

وشتان بين أن يذهب أحدنا إلى الجندية طائعاً راغباً فيها – كما هو

الشأن اليوم - وبين أن يساق إليها سَوقاً كالبهائم كما كان الحال في الماضي القريب.. وأبناؤنا أحوج إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية (كجنود نظاميين) خيراً من التحاقهم (كمتطوعين لوقتٍ محدَّد) لِما يمتاز به الجنود النظاميون من تنظيم صحيح، وتدريب جيد، ورواتب شهرية منتظمة - ولا سيّما في هذه السنين العجاف. وعلى العموم، فالخدمةُ العسكرية اليوم يتمنى الالتحاق بها كل شاب طموح.

فبادروا لتدارك ما فاتكم من المكاسب والخير وأرسلوا أبناءكم إلى مراكز التجنيد قبل أن يحيط الخطر بكم وتحيق المجاعة بأُسَرِكم».

فأمَّن بعضُ الحاضرين على قوله وحَوْقلَ الباقون.

أمَّا الشباب فما أن تناهت إلى أسماعهم كلمات المختار وردَّدتها أوساط القرية حتى دبَّ الحماس في رؤوسهم وصمّم كثير منهم - وفيهم عايد - على الذهاب إلى مراكز التجنيد في أول فرصة ممكنة.

فكأن هذا الرجل قد نبّههم إلى التجنيد، وإلى الالتحاق بالجيش، وكأنهم لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة قبل اليوم.!

* * *

لم تكن طرق المواصلات البرّية في الأردن حتى زمن قريب كمثْل ما هي عليه اليوم من التقدم والسرعة والراحة.

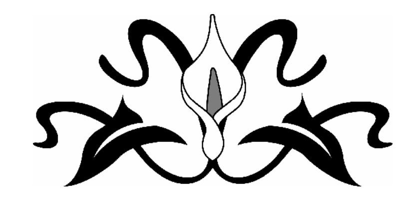
فمثلا كان الطريق البري الذي يوصل قرية عايد بالمدينة القريبة منها (مركز اللواء) طريقاً ترابياً ضيقاً يمر في منطقة جبلية شجرية، كثيرة من المنعطفات والالتواءات.

ولم تكن وسائط السفر أيضاً متوفرة كما هي اليوم. أما ما توفر آنذاك فلم يكن بحال يسمح له بالسفر يومياً نظراً لما كان يلاقيه من (أعطال) وتوقف عن الحركة نتيجة خلل فني في بعض أجزائه المهترئة أو لعدم توافر الركاب يومياً من وإلى المدينة أو لاعتبارات أخرى كثيرة..

وكانت المسافة بين المدينة والقرية لا تتجاوز الثلاثين كليومتراً. أمّا واسطة السفر المخصصة للعمل ما بينهما فكانت سيارة ركاب من نوع (جي إم سي) بحُمولة سبعة ركاب.

كانت سيارة قديمة، أكل الدهر عليها وشرب.. كما يقول المثل. وكانت لسوء حالتها (الصحية) لا تعْمل على (البنزين) وحده كوقود،

بل مع البنزين (الدَفْش والسَحْب والصبر وطُول البال).. وذلك كلما عنَّ ببالها (التوقف) في أي جزء من أجزاء الطريق. فكانت – والحالةُ هذه - تسير على (الخط) يوماً وتتوقف عن الحركة يوماً أو يومين، لغايات الإصلاح في أحد كراجات السيارات في المدينة.



«٤»

قرَّ رأي بعض الشباب – كما قدمنا - على الذهاب إلى مراكز التجنيد في أقرب فرصة ممكنة.. وقد حانت هذه الفرصة الآن بعد أن ارتأت الجماعة من شيوخ القرية ووجهائها أن يسافر في كل سانحةٍ ثلاثةٌ أو أربعةٌ من الشباب اللائقين (في نظرهم) للجندية نظراً لحاجة أهل هؤلاء الشباب وذويهم لمساعدتهم في شؤونهم القروية من جهة، واتّباعاً لأوقات التجنيد ونظمه التي تحدد العدد المطلوب في كل منطقة أردنية من جهة أخرى.

واتفق الجميع - هذه المرة - على إرسال الشباب الثلاثة: عايد ومحمود وناصر إلى مركز التجنيد الرئيسي في العاصمة عمَّان. فأعدّ الثلاثة ما يلزمهم من حاجيات متواضعة و(زوَّادة) سفر للتوجه أولاً إلى عاصمة اللواء ومنها ليسافروا إلى عمَّان.

* * *

كان محمود شاباً في العشرين من عمره - في مثل سن عايد تقريباً - وبيْنه وبين عايد شبه خَلقي كبير كذلك لولا أن محموداً يَضْرب لونه إلى السُمرة الخفيفة المحببة.. ناهيك عما يمتاز به عن عايد من صفات

حميدة وسلوك حسن وتواضع ومستوىً تعليمي أعلى وذكاء وتوقد ذهن.. كل ذلك مما حبَّب إليه الناس أكثر من عايد.

كان قد الْتحق – كغيره - في صباه بالكتّاب. ثُم رأى والده بعد ذلك أن يرسله إلى المدينة ليحصل على قسط من التعليم الرشدي (الابتدائي) يخوله فيما بعد لكي يصبح في عداد الموظفين في الحكومة.. فكان حظه أن أكمل تعليمه الرشدي هذا ولكنه لم يَحْظ بالوظيفة الحلم التي أرادها وتمناها له أبوه لاعتبارات وأسباب كثيرة. فعاد عندئذ إلى أرضه يعمل فيها صابراً محتسباً ومنتظراً أية فرصة سانحة كي يلتحق بطابور الموظفين.. وتزوج من إحدى قريباته.. تلك الفتاة (وضحا).. ولم يكن زواجه بها موفقاً كل التوفيق بسبب سوء سلوكها معه وغلظة مزاجها وشراسة طبعها وسرعة غضبها، مما لا ينسجم ذلك مع سلوكه الحسن ومزاجه الهادئ وحلمه وصبره.

ومع ذلك، فقد كان صابراً، وراضياً بنصيبه من هذا الزواج غير المتكافئ، ولَمْ يَحدث مرةً أن تذمر أو تشكى لأحد من أهله عن سوء تصرفات زوجه معه. ولم يكونا قد أنجبا أولاداً بعد، حيث كانا حديثيْ عهد بالزواج.

* * *

أما ناصر فكان أكبرهم سناً، قصير القامة، حاد الطبع عصبي المزاج، يستفزه أدنى قول لا يتأتي كما يشتهي ويغضب ويزفر لأتفه سبب.

ولم يلتحق بكتّاب أو.. بتعلم حَرْفاً. وكان متزوجاً من إحدى قريباته، وله من زوجته (وطْفا) ولد واحد. ولم يكن سعيداً بزواجه أيضاً، إذ كانت وطفا عصبية المزاج كمثله، وسريعة الغضب والانفعال. وكثيراً ما كان يدب بينهما الخلاف والشجار لأوهى سبب، ويبدو ذلك واضحاً على مَسْمع أو مرأى الأقارب والجيران، على نقيض من محمود وزوجته اللذين لم يُسْفرا عن شجارهما للناس كما أسلفنا.

* * *

كان من الطبيعي أن يسافر أولئك الشبان الثلاثة إلى المدينة (مركز اللواء) بواسطة السيارة العمومية القديمة التي تحدثنا عنها سابقاً، لأنها كانت الواسطة الوحيدة للتنقل من القرية إلى المدينة وبالعكس كما قُلنا..

ولكنْ ما بالك وهم قد آثروا السفر راجلين (سيراً على أقدامهم)

بدلاً من السفر بواسطة تلك السيارات.؟!

ذلك بأنهم تشاوروا وتحاوروا قبل السفر وأدلى كلٌ منهم بوجهة نظره فقال عايد:

«إن السفر بواسطة هذه السيارة يكلفنا دفع أجرة لسائقها ونحن لا نملك من النقود إلا القليل الذي جمعناه بشق الأنفس ولن يغطي مصروفاتنا في المدينة، وأنتم تعْلمون بأن هذا السائق الماكر (صاحب السيارة) لا يَقْبل الأجرة إلاَّ (نقداً). كما أنه يأبى أن يمهلنا للدفع فيما بعد، وحُجته في ذلك حاجتُه دائماً للنقود كثمن للبنزين وللتزييت والتشحيم والتصليح والترقيع..الخ.

فأجابه محمود:

«هذا صحيح.. ولكن ما العمل إذن؟ إنه يترتب علينا - والحالةُ هذه – بأن ننتظر مدة كافية من الزمن كي يتسنى لنا جمع المزيد من النقود فماذا تقولان؟».

فقال ناصر:

«يا رجل! هل أنت مغفل أم مجنون فتؤخرَ سفرنا وأنت تعلم بأنه يجدّ في كل يوم شيء جديد في هذه الدنيا؟

«وافرضْ جدلاً بأننا أرجأنا سفرنا أسبوعاً أو شهراً فما الذي

تتوقعه خيراً في هذا التأخير؟ أمزيداً من النقود؟ كلا.! لأننا بحثنا وفتشنا في أكثر من مصْدر لكي نحْصل على ما حصلنا عليه من القروش القليلة بكل جهدٍ ومشقة كما لمسْتما ذلك بأنفسكما. وإنّي أقسم لكما بأنني اسْتلفتُ خمسين قرشاً من المُرابي (فلاح) لقاءَ أنْ أردَّ له سبعين قرشاً بعد انقضاء عام، أو تسعين قرشاً بعد عامين إنْ عجزتُ عن سداده في العام القادم. وقد حرَر صكاً بذلك موقعاً من شاهدين اثنين بالإضافة إلى (بصمتي) وتوقيعه. وأبى أن يقرضني أكثر من خمسين قرشاً.

وكلّنا يعرف بأن النقود عزيزة المنال في قريتنا بل في العالم أجمع بسبب الحروب والمجاعات.

وما لنا ولهذه السيارة؟ وما الداعي لنتّخذ سفرنا بها وعندنا من أقدامنا ما يغْنينا عنها؟! ومتى كنا نأبه لركوب السيارات وقد كنا نذهب إلى سُوق المدينة الأسبوعي سيراً على الأقدام مصطحبين معنا دوابَّنا المحملة ظهورُها أو ماشيتنا لبيعها في السوق؟

هذا بالإضافة إلى أن المسافة من هنا إلى المدينة لا تبعد كثيراً كما تعْلمان. وإنّي أستطيع السفر من هنا إلى المدينة ومنها إلى عمَّان أيضاً

ماشياً على قدميّ دون أن أجد في ذلك صعوبة تُذكر.».

وهكذا استطاع ناصر بقوله هذا أن يذْكي في زميليه نار الحماسة. فوافقوا جميعهم على السفر صبيحة اليوم التالي سيراً على الأقدام..

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، مع صياح الديكة سافروا مودَّعين بالدعاء والدموع من جانب ذويهم..

فبالدعاء كي يوفقهم الله تعالى في مسعاهم ويحقق مطلوبهم فينقذوا أهليهم من فقرهم المُدْقع..

وبالدموع لِما في سفرهم هذا من لوعة وفُرقة، وعذاب (وغربة) لمْ يألفوها في الريف.. إنك لو حاولت أن تخيّر الرجل الريفي بين أن تسلخ جلده عن لحمه وعظمه أوْ أن يبتعد عن قريته شهراً مثلاً أو أن يهاجر منها.. لاختار الخيار الأول إلاَّ أن يكون أمراً قسرياً أو خارجاً عن إرادته، أو أن تضطره (الظروف) الاستثنائية إلى الاغتراب أو الهجرة.. عندئذ يستسلم للأقدار ويسلّم أمره لله الواحد القهار.

فهو (مَشْدُود) إلى أرضه، بل هو صورة صادقة للانتماء للوطن والأهل والعشيرة..

* * *

وسافروا إلى المدينة..

ولا تسل كم عانوا من متاعب وصعوبات ومشاق في طريقهم.. كشأنهم في كل مرة يسافر بها أحدهم راجلاً للتبضع من المدينة.

ووصلوا المدينة ظهراً.. فاستراحوا قليلاً، وتناولوا بعض الطعام في مطعم شعبي اعتادوا أن يتناولوا طعامهم فيه كلما حلوا في المدينة أو زاروها. ثم امتطوا الحافلة العامة (سيارة الباص) المتجهة صوْب العاصمة عمَّان..

ويشاء الله تعالى أن يوفَّق عايد ومحمود في تلك الرحلة فيجند كل منهما جندياً نظامياً في الجيش الأردني.. أما ناصر فيعود أدراجه بعد أيام إلى القرية نتيجة إخفاقه في الفحص الطبي.. يعود وقد ملأ الحزن قلبه وعمَّ الأسى فؤاده، حاملاً معه ملابس رفيقيه المدنية، فيتحلق الأهل حوله - بعد وصوله إلى القرية - ولا سيَّما النسوة يسألونه عن أحوال عايد ومحمود فأخذ يهوّل الأمور من عنده؛ ، ويتحدث لهم عن مستقبلهما الغامض الرهيب، حيث المعارك والحروب التي ستواجههما، وعن الإنجليز واليهود.. وكأنه في رحلته القصيرة هذه إلى عمَّان قد ألمَّ بكل دقائق الحرب العالمية وأسرارها، وبالموقف الدولي!! وكأن زميليه

– في نظره - قد كتب الله لهما يأن يدخلا هذا (الجحيم) الملتهب ليجدا (مصيرهما) البائس فيه.. وأصبح هو - بفضل الله - من (الناجين) فيحمد الله تعالى على نجاته وعودته سالماً بجلده إلى أهله.. فتذرف عندئذ دموع النساء والرجال على حد سواء..

وما كان ذلك إلاَّ (ردة فعل) وانعكاساً لما يحمله في قلبه من موجدة وغضب حيال حَظه العاثر وفشله في الفحص الطبي فلا يكون في عداد المجندين..

ولكنّ أحد الحاضرين - وكان رجلاً محنكاً - سأل ناصر - بعد أن اشتم رائحة الكذب في حديث ناصر - ما دام الأمر من الشدة والهول كما تقول يا ناصر، فلماذا إذن لم تقنع صاحبيك بالعودة معك والعدول عن التجنيد؟

فقال ناصر: لقد بذلت ما بوسعي لردّهما عن الالتحاق بالجندية بعد أن عرفنا الحقيقة من الناس هناك ولكنهما لم يستجيبا لي..

فقال السائل المحنك: سنرى مدى صدق حديثك فيما بعد.. عندما يحْضر الاثنان في أول إجازة لهما إن شاء الله..

فقال ناصر - وقد فطن إلى مسألة الإجازات بعد غابت عنه

سابقاً - لكن! هل تظن يا هذا بأنهما سوف يحضران في إجازة بعد أشهر أو بعد سنة مثلاً؟ إن ذلك مستحيل، لأن الحرب قائمة، والإجازات ممنوعة، والسلامة من المعارك غير مأمونة..

وعندئذ قامت إليه والدة محمود، وكانت عجوزاً في الستين، وأرادت أن تصفعه على وجهه لولا أن منعها أحد الحاضرين، ثم قالت لناصر:

(فال الله ولا فالك)[3]. أَبْعدَ الله الشر عنهما يا وجه الشؤم يا ناصر!.

(3) مثل أردني.. والفال أو الفأل أو التفاؤل: النزوع إلى رؤية الجانب المشرق من الأشياء.. وهو عكس التشاؤم.

«٥»

وتمرُّ الأيام..

وكان قد نزل إلى الدنيا مولود جديد هو (صالح)، فيتلقاه أهله ولاسيّما والده (عايد) بالفرحة التامة والسرور البالغ.. إذ يحْضر عايد في إجازة خاصة بعد أيام من الولادة ، حيث لم يكن حاضراً في البيت آنئذٍ، ويطمئن على صحة الوالدة والمولود.. وكانت العادة أن تتم ولادة النساء في البيوت لا في المستشفيات، أما في حالات عسر الولادة - ونادراً ما كان حدوثها - فقد كانت تجرى في المستشفيات أو على يدي طبيب، أو تَبْقى المرأة تعاني الآلام والعذاب إلى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وبعد ولادة صالح بأيام قليلة أطلَّ على الدنيا مولود آخر جديد هي (صفاء) ابنة محمود.. فيتلقاها الجميع بالدعوة عليها وعلى اليوم الذي ولدت فيه، كما هي العادة لدى الشرقيين يتفاءلون ويفرحون لولادة الذَكر، ويتشاءمون ويغضبون لولادة الأنثى.. لكن والدها (محموداً) كان على النقيض منهم.. فلم يغضب أو يتشاءم لدى سماعه نبأ ولادة ابنته، بل سر بها سروراً قد يعْدل سرور عايد بولده صالح..

* * *

قُلنا إن التفاوت كان موجوداً ما بين عايد ومحمود في شتى المجالات منذ الصغر، وقد ظهر جلياً واضحاً في حياتهما العملية والعسكرية..

كانت طبيعة عملهما تتطلب أن يتفرق كلٌ عن الآخر بعد أن اجتازا فترة التدريب الأساسي في مركز التدريب، ليعمل كل منهما في ميدان خاص، ووحدة مستقلة.

وفي الوقت الذي وصل فيه محمود بالترقية إلى رتبة ملازم في الجيش كان عايد قد وصل إلى رتبة وكيل ضابط.

هذا من حيث الرتب والترقيات (وإنْ كان للحظ فيها نصيب). أما في غير ذلك فقد كان سلوك محمود حسناً، وعلاقته برؤسائه ومرؤسيه ممتازة، مما حببه إليهم وحببهم إليه.. على النقيض من عايد، حيث كان سلوكه سيئاً، وعلاقته برؤسائه ومرؤسيه غير مرضية، ولاسيّما مرؤسيه مما جعلهم يكرهونه ولا يحترمونه إلاَّ في نطاق الضبط والربط العسكري.

* * *

وأخيراً.. جاء اليوم الذي توقفت فيه طبول الحرب وأصوات المدافع والبنادق عن الحركة.. وانتهت الحرب العالمية الثانية بانكسار ألمانيا النازية وانتصار دول الحلفاء - كما هو معلوم – فزالت على الأثر دُول وقامت على أنقاضها دول أخرى، وفتح التاريخ في سِفْره الضخم صفحة للعالم بيضاء جديدة..

ولكن.! لقد انتهت الحرب الكونية ما بين منتصر ومنكسر، كما هي النهاية دائماً في الحروب والمعارك وعاد بعدها كلٌ إلى بلاده يعيد تنظيمها وإعمارها، ويخطط لمستقبلها، ويعمل على ازدهارها..

عاد جميع المتحاربين إلى بلادهم، وانتهت الويلات وسكتت أصوات المدافع والقنابل.. إلاَّ في فلسطين وبعض الأقطار حيث امتدت الثورات والاشتباكات في فلسطين - مثلاً - إلى ما يقْرب من ثلاث سنوات أخرى بعد الحرب العالمية المذكورة.. كما هو معلوم.

وكان عايد ومحمود قد اشتركا فعلاً في بعض معارك فلسطين - كلٌ في موقعه - وأبليا فيها بلاء حسناً.. ولكنهما خرجا من الحرب سالمين ليُقتل أحدهما (محمود) في ميدان التدريب، وليبقى الآخر (عايد) حيّاً يكْمل لنا القصة كما سنرى..

ففي صبيحة يوم من أيام التدريب المعتادة خرج الملازم محمود مع فئة من جنوده إلى ميدان الرماية للتدرب على رماية القنابل اليدوية..

وكما هو الواجب على كل مدرب أو قائد مجموعة أن يقوم بالتطبيق العملي، بادئاً بنفسه أولاً، بعد أن ينهي شرح الدرس نظرياً، ولا سيّما في الدروس العسكرية، فقد تناول محمود قنبلة يدوية حيَّة وأخذ يهيؤها للعمل، ولكن الموت عاجله ساعتئذ فانفجرت القنبلة بين يديه فتناثرت أشلاء جسمه في الهواء، وأصابت شظاياها بعض الجنود بجراح وجُن جنون جنوده لهذا المشهد المأساة، وانخرطوا في البكاء على قائدهم المحبوب، وأخذوا يجمعون أشلاء جسمه المتناثرة ليعودوا بها إلى معسكرهم تمهيداً للإذن بنقلها عاجلاً إلى أهله في قريته.. كما تم إخلاء المصابين من الجنود وإسعافهم..

وعادوا به، بل بأشلاء جسمه إلى أهله في اليوم التالي في موكب عسكري جنائزي مهيب.. ودفن في مقبرة القرية بين بكاء الأهل والجنود وأهل القرية وبعض القرى المجاورة..

* * *

وكان لا بد من مغادرة وضحا بيت الزوجية بعد استشهاد زوجها محمود بأسابيع قليلة.. إلى بيت أهلها مع طفلتها الصغيرة صفاء.

عادت وقد ارتدت أثواب الحداد التقليدية، وأظهرت للناس من الحزن على فقيدها ما جعلهم يجزمون بأنها زوجة وفيَّة لزوجها وقد لا تتزوج بعد وفاته.. أو ستمتد بها الرغبة عن الزواج إلى سنوات قادمة..

ولكن هذا الحداد ما لبث أن تقلص ظله بعد شهور قليلة، ثم ازداد فتوراً وانحساراً مع مرور الأيام، وعادت إليها نضارتها، وأصغت إلى طبيعة الأنوثة، فنزعت أثواب الحداد أولاً بأول، وبدأت في تناسي زوجها الراحل والبحث عن زوج بديل بوسائلها الخاصة.. وإن يكن رجلاً متزوجاً فلن (ترفض) ذلك الزوج إن توفر فيه الغنى أو الجاه..

«٦»

بعد جلاء الأتراك عن الوطن العربي حل مكانهم في استعمار بلادنا الانجليز والفرنسيون بعد معاهدة سايكس – بيكو المعروفة حيث تقاسموا فيما بينهم تركة الرجل المريض (تركيا) بانتدابهم على الأقطار العربية.

إذ في الوقت الذي كان الإنجليز يتفقون فيه مع الشريف حسين على استقلال البلاد العربية فإنهم كانوا يغدرون به ويُجْرون من وراء ظهره مفاوضات سرية مع فرنسا لاقتسام البلاد العربية والحيلولة دون قيام دولة موحدة فيها. وقد قضت الاتفاقية على أن تكون سوريا ولبنان حصة فرنسا بالانتداب، وأن يكون العراق والأردن حصة بريطانيا.. الخ.

والذي يعنينا هاهُنا بأن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في البلاد العربية قد تغيرت إلى الأحسن مما كانت عليه إبان حكم الأتراك.

فقد تحسنت أحوال التعليم كثيراً في معْظم مدن الأردن وقراه بعد جلاء الأتراك عن البلاد؛ فأُوجدت المدارس الحكومية - بالإضافة إلى

الكتاتيب والمدارس الأهلية - للذكور والإناث، وعُدلت المناهج المدرسية، ولم يتدخل المستعمر الجديد في شؤون البلد الداخلية الصِرفة.

كما تحسنت بعض مَرافق الحياة الأخرى كالاتصالات الهاتفية ووسائل النقل والمواصلات والأمور الصحية والزراعية والتجارية.

وأما في الجيش فقد أُنشيء جيش نظامي متواضع (بقيادة انجليزية طبعاً) وتم تدريبه وتسليحه بشكل بدائي ومحدد، وعلى أُسس من الضبط والربط العسكري وبرواتب شهرية منتظمة لمنتسبيه. كما تم تزويده بما يلزمه من عربات وآليات ولوازم ولباس موحد لأفراده من جنود وضباط وطعام ومأوى.

وقد دخلت البلاد - فعلاً - في عهد جديد من التقدم النسبي..

وقس على هذا ما حدث لسائر أقطار الوطن العربي.

* * *

وتمر الأيام..

ويحين موعد قبول صفاء في المدرسة الابتدائية.. فيلحقها أعمامها بمدرسة البنات الابتدائية الحكومية في القرية المجاورة لقريتهم. إذ اقتضت الظروف إيجاد مدرسة ابتدائية للإناث لكل مجموعة قُرى في أكبر قرية منها.

وقد ظهرت على صفاء أمارات الذكاء والنجابة منذ الصغر، فبزَّت زميلاتها وكان ترتيبها في النتائج المدرسية السنوية من الأوائل.

كما أُلْحق صالح بمدرسة الذكور الابتدائية الحكومية وقد بدت عليه - أيضاً - علامات الرغبة في التعلّم - وإن كانت ليست بالدرجة التي عليها صفاء - وظل الاثنان يرتقيان في صفوفهما إلى أن أنْهيا الصف الخامس الابتدائي. وفي هذا الوقت كان عايد قد أصبح – بحكم الظروف والأقدمية - برتبة ملازم أول في الجيش.

* * *

كثيراً ما تكون نتائج جهودنا وأتعابنا وبالاً علينا وسعادة لغيرنا، ويكون ما ادخرناه خلال سنوات بَعْثَرةً لغيرنا في أيام أو ساعات.

ذلك من غير أن يكون لنا نصيب في الإفادة منه، أو من غير أن

يعْبأ بنا وبجهودنا من يتولّى بعثرته وحْده. بل كثيراً ما بنى أناس كي يهدم بناءهم آخرون.

تِلْكم هي سنّة الحياة وطبيعة البشر.!

وفي النساء من ليس لديهنَّ عهد ولا ضمير، فتتزوج إحداهن وتُظهر لزوجها وبطرق خادعة ماكرة بأنها تحبه وتخلص له، وتقسم بأغلظ الأيمان لزوجها أن لو فرقت بينهما الأقدار - بموت الزوج مثلاً - فلن تتزوج من غيره أبداً.. حفاظاً على العهد، وإخلاصاً للحب..

ولكنها سرعان - بعد موته - ما يُكتشف كذبها حيث لا يمضي طويل وقت إلاَّ وقد تناست زوجها الراحل وبحثت عن زوج غيره ولا سيّما إن تكن في سن يسمح لها بالزواج..

هذا في بعض النساء. وقد يكنَّ معذورات – كنساء - في ذلك، ولكنْ ما بالك في صنف من الرجال الذين تذهب بهم نزواتهم إلى عدم (القناعة) بزوجة واحدة فيعْمد أحدهم إلى الزواج بأكثر من زوجة بمجرد أن ترتفع منزلته الاجتماعية أو يكثر ماله.. متنكراً لقواعد الأخلاق والاستقامة، غير عابيء بشريكة حياته الأولى، ناكراً جميلها

وصبرها أيام بؤسه وفقره..

وإذا ما سألته: لمَ تتزوج يا هذا فإن لك من امرأتك وأولادها ما يغنيك عن هذا الزواج الثاني؟ لأجابك: بأن الإسلام يسمح له ولكل قادر على الزواج أن يتزوج مثْنى وثُلاث ورُباع..

فهو جاهل أو متجاهل.. حيث يتخذ من الإسلام ذريعة وباباً لدرء (شذوذه) ونزواته.. في الوقت الذي لا يسمح له الإسلام بتعدد الزوجات إلاَّ في حالات خاصة كزيادة عدد النساء على الرجال بسبب الحروب، أو عقم الزوجة، أو مرضها مرضاً مزمناً حيث الإبقاء عليها بمنعها من التشرد، أو إكثار النسل في الأمة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.. كما أن هناك من الرجال الأقوياء في أجسامهم مَن لا يستطيعون الامتناع طويلاً عن المباشرة الزوجية، وبسبب ما يعترض المرأة من ظواهر طبيعية في جسمها كالحيض والنفاس فإن المسألة تكون خطيرة قد تؤدي بالزوج إلى الزنا.

كل هذه الأمور التشريعية قد بيَّنها الدين من باب عدم العسرة، أو حصر الزوج المضطر للزواج فوق زوجته التي في عصمته.. لما في

هذا الدين الحنيف من يسر وتسامح وتسهيل للأمور.

وفوق ذلك - وهم الأهم - فقد أوجب الإسلام على من يلجأ إلى التعدد أن يتحرى العدل بين زوجاته، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. فالعدل شرط أساسي من شروط التعدد.. كي لا تسود الفوضى والظُلم والتفكك رباط الزوجية المقدس.

* * *

أُدخل عايد مستشفى الأمراض النفسية للمعالجة من مرض نفسي ألمَّ به. ومكث في المستشفى شهراً، ثم غادره إلى قريته ليقضي إجازته المرضية بين أهله وذويه..

ومع أنه أبل من مرضه، إلاَّ أن مرضه هذا قد أحدث في طباعه وسلوكه وتصرفاته مع زوجته وأقاربه (انقلاباً) شاملاً؛ فأخذ يقسو على الزوجة لأتفه الأسباب، ويسيء معاملته لها بين الحين والآخر وعلى مشهد من الناس.. حتى تقوض صرح الحب الذي كان يظللهما سقفه، وابتعدت السعادة عنهما وحل محلها الشقاء ونكد العيش..

لكنّ زوجته أمينة لم تبادله كرهاً بكره، ولا إساءة بمثلها.. ولم

تُطلع أهلها أو أقاربها على ما يجري في بيتها - وإن كان ما يجري لا يخفى عليهم - بل صبرت واحتسبت وأسلمت أمرها إلى الله تعالى فعسى أن يَصْلح حالُ زوجها فيعودَ إلى حظيرته الأولى ويشفى من مرضه.

وكانت – إلى جانب ذلك – تطيعه جيداً، وتقوم على شؤونه وخدمته وتلبية طلباته - وقد كثرت الآن بعد الذي أصابه من مرض - أكثر مما تفعله له في أي يوم مضى..

وبقي هذا حالها معه في كل مرة يأتي فيها بإجازة إلى القرية.

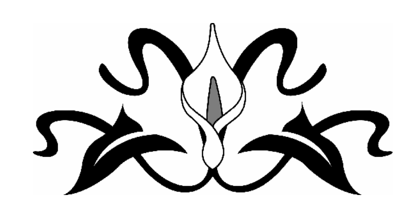
انتشرت إشاعات كثيرة في القرية خلاصتها أن عايداً سيتزوج من الأرملة وضحا زوجة المرحوم محمود.

وأثبت صحة هذه الإشاعات تلك المعاملة القاسية التي بدأ عايد في الآونة الأخيرة يعامل بها زوجته أمينة، وكثرة زيارات عايد لأهل وضحا في كل إجازة له إلى القرية وما يتْبع ذلك من الهدايا لها ولأهلها..

وبات الجميع يتوقعون إعلان خطبته عليها وزواجه بها في وقت قريب جداً..

وفعلاً تمت الخطبة بعد أشهر، وحدد الطرفان موعداً للزواج، بعد أن ضربَ عايد بكل اعتبار معنوي أو أدبي لزوجته الأولى، متناسياً أيامهما المشتركة الماضية.. بحلوها ومرّها، وعشرتهما الطويلة كزوجين وفيين..

وقد رأينا آنفاً الأسباب التي تدعو الرجل للتعدد، ولمسنا بأن عايداً لم تكن له حاجة أو سبب مبرر لهذا الزواج الثاني، لأن أمينة تنجب له البنين والبنات، وتحبه وتخلص له، بالإضافة إلى أنها تصغره سنّاً وجَمالها لا بأس به.. وبالتالي فقد شاركته أفراحه وأتراحه، وسعادته وشقاءه.. سنوات وسنوات..



«٧»

وتزوج عايد وضحا..

ولم يمض على زواجهما بضعة أيام حتى كانت أمينة تستعد لاستقبال مولودة جديدة هي سعاد.

ولكن عايداً كان في شغل شاغل عنها وعن مولودتها هذه بسبب زواجه الجديد، فلم يُعْنَ بها - كعادته قَبْلاً - لدرجة أنه لم يدخل إلى غرفتها وقْتَ نُفاسها عدا مرة واحدة ولم يوعز إلى (عروسته) بأن تقدم إلى ضرتها مساعدة أو عوناً في مثل تلك الحالات، بل قام بعض أهل أمينة وعلى الأخص والدتها برعايتها والعناية بها فترة الأسبوع الأول لولادتها.

وأما وضحا فلم يختلف شأنها عن شأن زوجها في عدم تقديم العون لأمينة من تلقاء نفسها، كما هو الحال لدى أكثر الزوجات الضرائر في مثل تلك الأحوال، اللهم إلا في الأوقات التي يجتمع فيها المهنئون والمهنئات عند أمينة..

وذلك لكي تُظهر للناس أنها لا تفتأ تشرف على ضرتها وتقوم على

خدمتها..

وكأن تلك المرأة قد ملكت زمام أمر ذلك الرجل – عايد - من أول يوم وقع نظره عليها، أو كأن عايداً نفسه قد ترك لها الحبل على الغارب في كل ما تقوم به من عمل أو تتصرف به من تصرف.!

* * *

وكانت صفاء قد انتقلت مع أمها إلى بيت عايد نظراً لتعلقها بأمها من جهة، ولكونها لا زالت طفلة صغيرة ولا بأس في انتقالها إلى بيت زوج أمها من جهة أخرى..

ولكن هذا الانتقال لم يكن فعلياً مائة بالمائة ولم تتخذ صفاء بيت عايد (مقراً) دائماً لها - ولاسيّما بعد أن كبرت سنّها - بل كانت تزور - أيضاً - بيت جدّها لأبيها وتقضي فيه أكثر أوقاتها. فكانت – والحالة هذه – حرة في اختيار أي من البيتين..

وهنا كانت قد وصلت في دراستها إلى الصف السادس الابتدائي.

ولم يمانع عايد في انتقالها مع أمها على تلك الصورة الانتقالية

المتقطعة، مراعاة منه لخاطر أمها بحساب أنها زوجته الأثيرة لديه، وإكراماً لروح أبي الطفلة، وبالتالي (وهو الأهم من ذلك كله) فلأنه لا ينفق عليها من جيبه الخاص حيث أن لها راتباً شهرياً كانت قد أمرت به الحكومة بعد وفاة أبيها.

* * *

كان بيت عايد - حتى زواجه الثاني - مكوناً من غرفتين ومطبخ واحد؛ وقد جعل غرفة للضيوف ومثلها للأسرة.. أما بعد زواجه الثاني فقد عمل على زيادة عدد الغرفتين بإضافة غرفة ثالثة خصصها لزوجته الثانية، وأبقى المطبخ مشتركاً بين الزوجتين.

وقد اتخذ مقرّه (شبه الدائم) في غرفة وضحا فقط - وإنْ كان لا زال بعيداً بحكم وظيفته - فوضع فيها أشياءه وحاجياته الشخصية، وكان إذا ما حضر في إجازة يتوجه مباشرة إلى غرفتها ويقضي إجازته لديها.

هذا بالنسبة للسكنى. أما من حيث المصروفات وما يتعلق بالمؤنة الشهرية فقد جعلها مناصفة بين الطرفين أو الزوجتين – بناءً على تعليمات وضحا له - فجعل لأمينة وولديها حصة من كل صنف من

الأصناف التي يشتريها للبيت وجعل لوضحا (وحدها) حصة تعادل الحصة الأولى غير مدرك عدد الأنفس في الطرف الأول وما يستهلكونه بالنسبة للطرف الثاني، كما جعلت وضحا من نفسها السيدة القائمة على شؤون التوزيع والصرف.

* * *

وهكذا انصرف عايد كليةً إلى زوجته الجديدة ومنحها من نفسه وقلبه وماله أضعاف ما كان قد منحه لزوجته الأولى (أمينة) في يوم من الأيام.

أمَّا أمينة فقد (اعتزلت) مع ولديها في غرفتهم... تعنى بهما، وتقوم على تربيتهما. وقد حملت عبء المسؤولية وحدها بعد أن تخلى عن حملها الوالد..

وأما صالح، فلم يكن ما يجري في البيت يسترعي انتباهه بكثير أو قليل، لأنه لم يكن قد (نضج) عقله بعدُ، ولم يكن قد وصل إلى السن التي تجعله يفهم بها حقيقة الأمور..

* * *

ولمَّا كانت وضحا من صنف النساء اللاتي يتملكن زمام الأمور لدى الرجال ويلعبن بقلوبهم وعقولهم بمجرد أن يقلْن كلمة معسولة أو يطْلقن ضحكة رنّانة - وقد عُرفت بضحكة رنانة خاصة - فقد كانت هي الآمرة الناهية الوحيدة في البيت، وجعلت من نفسها المسؤول المباشر على الجميع بما في ذلك ضرتها وأولادها. وطغت بشخصيتها القوية على الزوج والضرة والناس من حولها.

ولم تقف وضحا عند هذا الحد، بل كثيراً ما كانت تعترض سبيل أمينة وتغار من صمتها فتتحرش بها لتنشب عندئذ (معركة) بينهما، تبدأ بالسبّ والشتم، وتنتهي - أحياناً – بالأيدي ثم بالخصام والكف عن الكلام أسبوعاً أو شهراً أو أكثر أو أقل.. حسب نوعية المعركة الناشبة بينهما..

وأحياناً كانت تقع (الخناقات) في الأوقات التي يكون فيها عايد مجازاً في البيت، حيث لا يمتلك القدرة على إسكات صوت وضحا المعتدية.. بل غالباً ما كان يقف في صفها وينهال شتماً أو ضرباً على أمينة..

وتمرُّ الأيام..

«٨»

غالباً ما يظل القَدر إلى جانب الأقوياء ردحاً طويلاً من الزمن.. بل شد ما يكون الحظ إلى جانبهم أكثر أيام العمر؛ يشد أزرهم، ويثبّت أقدامهم ويتسبب في إحباط الضعفاء والمساكين كي لا يلحقوا بركب المحظوظين.

فالذي منحه القدر لوضحا كان شيئاً كثيراً بالنسبة لها.. ولم تكن تتوقع حدوثه في يوم من الأيام..

ومع ذلك فقد أبى إلا أن يكْمل لها العطاء لتكمل هي الأخرى دورها في تلك المسرحية التي تم تمثيل أدوارها في بيت عايد..

لقد اكتملت فرحتها وابتسم لها القدر بعد أن وضعت مولودها الأول من عايد - ولداً ذكراً – هو (حامد) في الوقت الذي كان به عايد حاضراً في إجازته السنوية الطويلة.

ولا تسل عن مدى الفرحة التي غمرت قلبي عايد ووضحا ساعتئذ، ثم لا تسل عمّا قدَّماه من ألوان الطعام وأصناف الحلوى احتفاءً بمولودهما وابتهاجاً بمقْدمه..

كما لا تعجب للمتناقضات التي جرت وتجري في حياة كل من الزوجتين؛ أي موقف كل منهما تجاه الأخرى.

فقد رأينا سابقاً موقف وضحا (السلبي) تجاه أمينة في فترة ولادة الأخيرة ونفاسها.. ويفترض الآن في أمينة، وفي فترة ولادة وضحا أن يكون موقفها (سلبياً) تجاهها، وأن تعاملها بالمثْل، وذلك شيء منطقي..

ولكن أمينة الطيبة القلب، الصابرة المحتسبة كما عهدناها في جميع أدوارها تقريباً.. لم تقابل الإساءة بمثلها ولا نكران الجميل بندّه، بل قامت على خدمة ضُرتها وقدمت لها من ضروب المساعدة والعناية الشيء الكثير..

كل ذلك من غير أن يصْرف لها عايد أو وضحا كلمة شكر واحدة.

* * *

لقد احتملت أمينة أذى كبيراً..

احتملت العذاب والجور من الزوج والضرّة معاً.. فصبرت واحتسبت من أجل أولادها وحفاظاً على (سمعتها) بين أقاربها ورضىً بنصيبها من الزواج في هذه الحياة.. وأملاً في أن يشب ابنها صالح بعد سنوات قريبة، فيثأر لكرامتها المجروحة، وينتقم لها من ضرتها القوية ويعيد أباه إلى حظيرته الأولى.. والناس.. آه من الناس الذين لا يرحمون مسكيناً أو ينصرون مظلوماً..

الناس هؤلاء.. كالقَدر يميلون دائماً إلى صف القويّ ويقفون إلى جانبه..

الناس هؤلاء.. ولا سيّما المنافقون منهم الذين يرون الحق باطلاً فيبتعدوا عنه، والباطل حقّاً فيقتربوا منه.. على نقيض مما يتطلبه الدين والأخلاق..

الناس هؤلاء.. لم ولن يرحموها إن هي غادرت بيت الزوجية إلى بيت أهله وخلّفت وراءها أولادها، ولا سيَّما وهذا زوجها يرفض طلاقها، بعد إذ طلبته منه مرَّات.. بحجة أنه غير (مقصر) في أداء

(حقوقها) الزوجية كما يدَّعي..

فإن هي هجرت الزوج فسيجعل الناس من عملها هذا (قصة) تلوك بها ألسنتهم، ويتندرون بها في مجالسهم إلى أن يجدوا قصة غيرها فيّدَعوها..

وحتى زمن قريب.. ظل أهل الريف في الوطن العربي يولون السمعة الطيبة منزلة عالية في منازل (الشرف) التي يفهمونها وتوارثوا مفهومها أباً عن جد.. بل كثيراً ما قضى نحبه في سبيلها الكثيرون منهم..

فالسمعة الطيبة والشرف والكرامة والنخوة وغيرها من الصفات الحميدة عادات متأصلة فيهم إلى جانب الدين وعدم الإشراك بالله..

إنهم يقدسون جميع هذه الخلال ويحافظون عليا أشد الحفاظ، بل يفتدونها بأرواحهم وأنفسهم..

قُلنا آنفاً إن القَدر غالباً ما يظل إلى جانب الأقوياء.. ولكن.! أنْ يظل إلى جانبهم على (طُول الخط) فذلك أمر مستحيل.!

قد يتوقع الأقوياء منه ذلك فيركنوا إلى (صداقته) وتحالفه

معهم.. في الوقت الذي يسخر فيه منهم ويستهزيء بهم، بل يقهقه ضاحكاً شامتاً من هؤلاء الذين لا يعرفون سره ومكنونه.

وهذا ما حدث فعلاً لعايد ووضحا معاً؛ إذ وقع ما لم يكن بالحسبان، أو – على الأقل - لم يكونا يتوقعان حدوثه بهذه السرعة وفي هذه الأيام..

فقد أنهيت خدمة عايد العسكرية بعد أن وصل في الترقية إلى رتبة (نقيب) وحُرم من راتب التقاعد إثر إدانته بتهمة اختلاس مالية من الوحدة التي كان يتولى قيادتها..

ونتيجة لذلك، فقد أصيبت وضحا بخيبة أمل كبيرة ونكسة شديدة.. لا طمعاً في الحصول على مال فقط، بل لأنها كانت تؤمل في زوجها أن يصل إلى أعلى الرتب وأسنى المناصب ولا سيّما وقد تبسم له السعد وواتاه الحظ وتفتحت أمامه سبل التوفيق، بل لقد بدأ خطواته الأولى في شارع النجاح.

وهُنا كان صالح قد وصل في دراسته إلى الصف الأول الإعدادي..

وأخذ ينمو ويكبر.. فأصبح فتى طويل القامة، حلو القسمات، حسن الهيئة والصورة.

ولم يكن إنهاء خدمة والده من الجيش ليغْنيه من قريب أو بعيد - كعادته - بل انصرف إلى دروسه وحياته الخاصة.

* * *

استقر عايد في بيته بعد إنهاء خدمته العسكرية.. وانقضت أيام وشهور فكان لا بد له - بعد ذلك - من أن يتخذ (عملاً) أو يبحث عن وظيفة، ولا سيّما وهو لا زال شاباً وقادراً على العمل..

صحيح أنه ليس بحاجة ملحّة إلى المال بسبب حوزته على مبلغ كبير كان قد جمعه بطرق مشروعة وغير مشروعة أثناء خدمته العسكرية، ولكن هذا لا يمنع من مزاولة العمل لأن القعود عن العمل مرض بدني ونفسي..

فجرب أن يطرق أبواب الوظائف التي تليق بمقامه كضابط سابق في الجيش، ولكنه لم يفلح.

وعندئذ قرر بينه وبين نفسه أن يمارس العمل (الحُر) على أن

يكون هذا العمل الحر بسيطاً في مظهره وقيّماً في جوهره، وأن لا يتجاوز حدود قريته..

لقد رغب في أن يضع لأولاده من بعده (رصيداً) ممتازاً من الفدادين الزراعية فيحفظ بذلك مستقبلهم.. فأخذ يشتري قطع الأراضي الزراعية من بعض أهل القرية المحتاجين بأثمان بخسة مهتبلاً فرص احتياجهم لبيعها..

فهذا والد يريد تزويج ابنه وليس معه من المال ما يكفي لنفقات العرس وولائمه فيضطر إلى بيع بعض أرضه لهذا الغرض فيتلقفه عايد وينقده الثمن..

وذاك رجل قد وقع في ضائقة مالية مما يضطره إلى بيع بعض الدونمات من أرضه أو بستانه.. فيهرع إلى عايد ليبيعه ويتسلم منه الثمن إلى أن أصبح لدى عايد عشرات الدونمات الصالحة للزراعة أو المغروسة بالأشجار المثمرة كالزيتون والكرمة وغيرها..

ثم اشترى سيارة ركاب صغيرة للعمل ما بين القرية والمدينة لمَّا أن رأى حاجة القرية إلى مثل تلك السيارة، وعيَّن لها سائقاً من سكان

المدينة براتب شهري معلوم.

ولكن تلك السيارة لم يكتب لها التوفيق والعمر الطويل بصحبته.. إذ نشب خلاف حاد بينه وبين السائق حول (غَلّة) السيارة، فطرد السائق، وباع السيارة ولمَّا يكن مضى على شرائها بضعة أشهر، وآلى على نفسه أن يشتري سيارة عمومية غيرها..

لم تغيّر وضحا من طبعها السيء شيئاً، ولم تكفّ عن التحرش بأمينة ضرتها، والإساءة إليها بمناسبة وغير مناسبة.

وقد تفاقمت أعمالها الشريرة وازداد طبعها سوءاً إثر طرد زوجها من الجيش. وأصيبت بعقدة نفسية عجيبة؛ إذ نسَبت سبب طرد عايد من (دعوة) أصابته من أمينة أو قد تكون أمينة أو أهلها قد صنعوا لعايد (سحراً) عن طريق أحد السحرة المشهورين في المنطقة..

هكذا صوَّر لها عقلها المريض، وجهلها هذه الفرية السخيفة فسكبتها في رأس عايد فانطبعت لديه، وصدقها وكيف لا يصدقها وقد كان يبدو إزاء شخصيتها القوية كالنعجة العجفاء أمام ذئب كاسر؟!

وتمر الأيام..

وتضع وضحا مولودة تسميها فدوى..

«٩»

كلنا يعرف بأن التعليم - في جميع مراحله - يتطلب نفقات باهظة؛ فهناك رسوم التبرعات المدرسية، وأثمان الكتب والقرطاسية واللباس وما إلى ذلك..

وتبدأ تلك النفقات بالارتفاع التصاعدي كلما ارتقى الطالب أو الطالبة إلى صف دراسي أعلى..

وإذا ما قيست تلك النفقات بقلّة توافر النقود وتداولها في تلك الأيام العجاف لوجدنا أنها فعلاً باهظة بالنسبة لعامة الناس..

والطالب، وبخاصة من هو في إحدى المراحل المتوسطة والثانوية والجامعية بحاجة إلى (رعاية) خاصة واهتمام زائد من حيث تقديم متطلباته ولوازمه المدرسية وما إليها، كي يستطيع مواصلة دراسته على الوجه المُرضي..

وتلك حقيقة ملموسة .. يعرفها أولياء أمور الطلاب، كما يعرفها أيضا الطلاب أنفسهم..

ولكن.! ما بالك وصاحبنا عايد كان في تجاهل عن هذه الأمور

إلاَّ في ما يتعلق بمصروف صالح اليومي الذي لا يتجاوز قروشاً قليلة، مع تقديم الرسوم وأثمان الكتب وما يراه ضرورياً في بداية العام الدراسي..

ولو شئت أن تعْقد مقارنة بين ابن الرجل الغني (صالح) وبين أترابه وزملائه من أبناء العمال والفلاحين الفقراء لوجدتهم أحسن منه حالاً، وأسعد بالاً، وأندى معيشة، وأجمل هنداماً.. ناهيك عن توفر الحنان الأبوي لأولئك الزملاء وفقدانه لصالح.. مما كاد أن يولّد لديه عقدة نفسية، أو أن ينعكس ذلك على دراسته سلباً فيفشل في الدراسة أو في الحياة..

* * *

أراد عايد أن يختبر حظه هذه المرة بمزاولة نوع جديد من أنواع العمل الحر فاشترى خمسين عِجْلاً صغيراً، وأحضر لها من يتعهدها من أقاربه - تحت إشرافه - بعد أن خصص قطعة أرض قريبة من القرية، وبنى فيها زريبة مؤقَّتة.. إلى أن كبرت العجول وسمنت فباعها بأسعار ممتازة..

ثم اشترى خمسين عجلاً غيرها، وتعهدها إلى أن حان موعد بيعها

فباعها. ولكنه وجد في هذا النوع من العمل - إن استمر يمارسه - تعباً وإرهاقاً فآثر أن ينصرف عنه إلى غيره.

* * *

كان الناس من أهل القرية وخاصةً ذوو المنافع والمصالح الشخصية والمنافقون منهم يزورون عايد ويسمرون في بيته، ولا سيّما بعد إنهاء خدمته من الجيش، ويستمدون منه قروضاً وسلفات ربوية..

وكان عايد قد اتخذ من غرفة وضحا مَقراً دائماً له - كما أسلفنا - وقد حشدت وضحا من هؤلاء المنافقين (بطانة) لها و(شلّة) تعمل في صفها وتدافع عنها في المستقبل - إذا ما هبَّت أمينة ضرتها أو هبّ أهلها أو ابنها يطالبون باستعادة حقوقها المهضومة، أو خوفاً من عودة زوجها إلى أمينة وإلى أيامه الماضية معها، سواء أكان ذلك بتأثير من الناس أو بتأنيب من ضميره.

وبلسان حلو، ودبلوماسية خاصة جذبت إلى صفها عدداً كبيراً من الرجال والنساء من أقاربها، فاطمأنت نفسها من جهة زوجها.

* * *

وتمر الأيام..

كانت مدرسة ذكور القرية إعدادية فقط. ومثلها كانت مدرسة الإناث في القرية المجاورة.

فلما أن أكمل صالح وصفاء المرحلة الإعدادية بنجاح، كان لزاماً أن ينتقلا إلى مدارس المدينة الثانوية لمواصلة تعليمهما هناك..

فأعدت الترتيبات اللازمة لهما بعد موافقة الأهل والأقارب شريطة أن يستقر صالح في المدينة فيستأجر بيتاً مع زملائه أو يذهب ويعود يومياً بالسيارة العامة من القرية إلى المدينة وبالعكس. أما بالنسبة لصفاء فيجب أن لا تستأجر لها بيتاً في المدينة - كما هو الحال بالنسبة لصالح - لكونها (أنثى) ولا تستطيع أن تعيش بمفردها هناك مثلما يستطيع (الذكر) أن يفعل ذلك.. وعليها أن تغدو وتروح يومياً بالسيارة العامة، ولا سيّما وقد تحسنت الآن وسائط السفر وازداد عدد السيارات العمومية بين المدن والقرى.

* * *

والآن، حان موعد دخول (حامد) ابن وضحا في المدرسة الابتدائية..

وقد بدت عليه أمارات الكسل والبلادة من أول يوم يُلحق فيه بالمدرسة.. وبلغ من ذلك حداً جعل معلميه وحتى والدّيه يضيقون به ذرعاً، وخاصةً أمه التي أثار حفيظتها وكشف عن حقيقتها ما تكنّه من حسد نحو صالح الذكي الموفق..

ولنا الآن أن نقف وقفة أخرى فنقارن بين موقفين متناقضين اثنين كان قد وقفهما عايد من ولدْيه صالح وحامد.

فقد رأينا تجاهل عايد من متطلبات صالح الشخصية ورأينا (المعاناة) اليومية التي رافقت صالحاً أثناء دراسته منذ الصغر، وهو الطالب الذكي النابه، بينما نجد الآن عايداً يلبي متطلبات حامد - على صِغر سنه وبَلادته - ويحظى هذا بالرعاية من والده، لا لشيء إلاَّ لكوْنه ابْناً لوضحا، الزوجةِ المحْظية لدى زوجها، هي وأولادها بطبيعة الحال..

«١٠»

خطرت ببال عايد اليوم فكرة جديدة وغريبة.. ففكر وقدَّر..

ورأى أن يعْـوض فكرتـه هـذه عـلى مستـشاره الأول – زوجتـه وضحا - التي ما إن عرضها عليها حتى وافقته عليها بالكامل..

وكانت الفكرة أن يقوم عايد بترشيح نفسه في موعد الانتخابات النيابية المقبلة ليكون نائباً ممثلاً لمنطقته في المجلس النيابي.

لقد أراد أن يجرب (حظه) من هذه الزاوية ظناً منه أن قد أصبح ذا مكانة مرموقة بين أوساط الشعب بسبب ما يقدمه لهم من قروض مالية، واعتقاداً منه بأنه خير من سيمثلهم تحت قبة البرلمان، ولا سيّما وأن أولئك النواب الذين يمثلون المواطنين في المجلس النيابي ليسوا بأكفأ منه أو أحق في الحصول على هذا المنصب الكبير.

ولكنه في الواقع لم يكن يهدف من وراء ذلك إلا الوصول إلى (المناصب) وكسب المال الكثير عن هذا الطريق بعد أن فشل في الوصول إليها عن طريق الجيش أو الأعمال الحرة التي مارسها فيما بعد.

* * *

كان عدد المقاعد النيابية المخصصة لمنطقة عايد في المجلس النيابي في تلك الأيام مقعداً واحداً فقط..

وكان (يتناوب) على الفوز بهذا المقعد في كل دورَة انتخابية مرشح واحد من بين ثلاثة مرشحين (شبه دائمين) من أبناء المنطقة.

وكان أن اتفق أولئك الثلاثة فيما بينهم على أن (يتناوبوا) الفوز بهذا المقعد بالتساوي وبشكل تعاقبي فيفوز في كل دورة واحد منهم برضى الاثنين الآخرين وجماعتهما من المواطنين الناخبين..

وقد أصبحوا معروفين لدى الحكومة والمواطنين..

أما وقد أراد عايد أن ينافسهم اليوم على مقعدهم العتيد فذلك أمر بدهي بالنسبة لهم، وكانوا يتوقعون أمْراً مثله من عايد وغيره، ولكنهم قد (حصّنوا) قلعتهم، واتخذوا مسبقاً جميع (الاحتياطات الأمنية) لمثل هذه الأحوال، وقرروا اليوم أن (يصفّوا) حسابهم مع هذا المتطفل الذي يود مشاركتهم الجلوس على مقعدهم النيابي الأثير.

فدعوا إلى عقد اجتماع عام لمواطني القرية والقرى المجاورة (للشيوخ والوجهاء منهم) وطلبوا إلى عايد - بالرفق والحسنى – أولاً -

أن يعْـدل عـن رأيـه وينـسحب مـن المعركـة الانتخابيـة القادمـة رحمـةً بكرامتـه وحفظـاً لمـاء وجهـه، وإبقـاءً عـلى فلوسـه التـي سـينفقها - بـلا جدوى - في هذا السبيل..

فأبى عايد، وظل متشبثاً برأيه..

فحـاولوا إغـراءه بـدفع مبلـغ مـن المـال لـه كتعـويض لمـا أنفقـه أو سينفقه في حملته الانتخابية فأبى أيضاً..

وعندئذ تركوه وشأنه، مؤكدين - سلفاً – فشله الذريع، ولا سيّما وقــد قــرر المرشــحون الثلاثــة (الأُصــلاء) أن يــضاعفوا مــن المبــالغ المخصصة لشراء أصوات الناخبين من أقارب عايد لينسحبوا من صفه إلى صف مرشحهم.. إذ كانوا - بشكل عام - يشترون ضمائر المواطنين وأصواتهم بالمال..

وإزاء هــذا الموقــف الجــسيم فقــد وضــع عايــد كــل إمكانياتــه وجهوده، وجنَّد لفيفاً من المقربين إليه ليقوموا بحملات انتخابية كبيرة لدى القرية وقرى المنطقة..

فقـد ركبـه شـيطان العنـاد، وتـشبث بموقفـه في أن يخـوض المعركـة

الانتخابية أياً كانت النتائج..

كما بذلت وضحا ما وسعها البذل لإنجاح حملة زوجها الانتخابية، ورأت أن القدر قد عاد لمحالفتها وزوجها بعد أن عبس في وجهيهما يوماً ما..

وكان الناس من أهل القرية، وخاصةً أصحاب عايد المنافقون يشجعونه للمضي في مهمته حتى النهاية، بدلاً من إسداء النصح له بالانسحاب المشرّف، ولا سيّما وهم يعلمون تأزم الموقف وابتعاد الناخبين عنه منذ أن ضاعف المرشحون الأصلاء أثمان الأصوات..

كما كان جل أهل المنطقة من القرى المجاورة يمنّون عايد بالوعود المعسولة ليقبضوا منه الثمن فقط، وذلك لدى جولاته الانتخابية لهم.. في الوقت الذي لم يكونوا قد سمعوا به باسمه، ولم يكن عايد واحداً من زمرة أولئك النواب الثلاثة المعروفين في المنطقة..

* * *

وحان موعد الانتخابات النيابية..

وكان طبيعياً أن يفشل عايد، وأن يفوز أحد الثلاثة.. فذهبت

الجهود المادية التي بذلها عايد وزوجته لهذه الغاية أدراج الرياح..

وجاء المنافقون من (أصحابه) بعد فشله إليه للمواساة فوجدوه على غير ما تركوه عليه، حيث قابلهم بوجه غاضب، وسخرية منهم لنفاقهم الواضح العجيب..

لقد انقلب بعد هذه التجربة الأليمة شخصاً آخر، أصبح حاقداً على الجميع. ولذا، فلم يرحب بزيارتهم أو مواساتهم له كعادته، ولم يصغ إلى اعتذارهم الواهي، بل وصل به الحال إلى شتم أحدهم عندما همَّ هذا بالدفاع عن وجهة نظر الناس الذين لم يمنحوه أصواتهم..

أما موقف وضحا في هذه الفترة فقد كان لا يختلف كثيراً عن زوجها، إذ سلكت مسلكه بالنسبة لهؤلاء الناس، وآثرت أن تسلّي عن زوجها بأسلوبها الخاص كي تبعد عنه أثر الصدمة التي أصابته بسبب فشله في الانتخابات كي لا يعود إلى سالف حالته العصابية التي انتابته سابقاً فيدخل المصحة العقلية مرة أخرى..

وقررت أن يتناسى زوجها هذه النكسة، وأن يبدأ صفحة في حياته جديدة..

وأما أمينة فقد كانت أول الشامتين بفشل عايد، ولكنها أخفت

حقيقة مشاعرها خوفاً من بطش زوجها بها..

صنعت وضحا فنجانين من القهوة لها ولعايد وجلس الاثنان في غرفتهما في أحد الأمسيات يفكران ويخططان لمشروع جديد..

قالت وضحا لعايد، بعد أن أخذت رشفة من فنجانها: عليك الآن أن تلملم نفسك يا عايد وتعيد تنظيم شؤونك، وتبدأ من جديد.

فقال عايد مستوضحاً:

وماذا تقصدين؟

قالت وضحا:

ما رأيك بمشروع بقالة تموينات كبيرة؟ فالعمل التجاري عمل حر وشريف، كما أن التجارة قد بارك الله فيها..

قال عايد:

والله إنها لَفكرةٌ طيبة.! إنني أوافقك عليها! فمتى نبدأ بتنفيذها؟

قالت وضحا:

في أقرب فرصة إن شاء الله..

وبعد أسبوعين كان عايد يجلس في بقالته الجديدة..

* * *

وكبرَ صالح..

وأصبح شاباً في أوج شبابه..

وبدأت حواسّه تعي الأشياء من حوله، وبدأ يتفهم الأمور.. فعرف كل ما يجري حوله؛ عرف أن أمه مظلومة، تقف وحدها عزلاء في الميدان بينما يقف (خصمها) مستعداً مسلحاً بأقوى عتاد..

كما عرف أن عليه واجباً كبيراً ومسؤولية كبيرة في المستقبل القريب وأن عليه - والحالةُ هذه - أن يكون (رجلاً) بكل ما تعني هذه الكلمة ..

وهُنا بدأ يعدّ نفسه لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة.

* * *

وكانت صفاء قد شارفت – هي الأخرى - على إنهاء دراستها الثانوية وبدأت تعد نفسها أيضاً لامتحان الثانوية العامة..

وقد كبرت، ونضجت، وتفتحت مواهبها وأنوثتها، وازداد وعيها وإدراكها للأمور..

كان موقفها لما يجري في بيت عايد من مشاكل موقف (المحايد) الذي لا يتدخل أو يحشر أنفه بين (الخصوم).. ولكنها كانت في قرارة

نفسها (تعطف) على أمينة وترثي لحالها، إذ عرفت أنها مظلومة، وأن أمها (وضحا) ظالمة، وأن عايداً (زوج أمها) ظالم أيضاً.. ولكنها لم تكن لتغضب أمها بأي حال من الأحوال، فآثرت الصمت وعدم التدخل ريثما تواتي الظروف..

وكانت قد انتقلت من بيت عايد نهائياً إلى بيت جدها لأبيها بعد أن كبر سنها وأصبح من العار عليها أن تبقى تعيش في بيت أمها المتزوجة.

وكان بيت جدها هذا لا يبعد كثيراً عن بيت أمها. فكانت تزور أمها كل يوم تقريباً. غير أنها تعود في المساء لتنام في بيت جدّها.

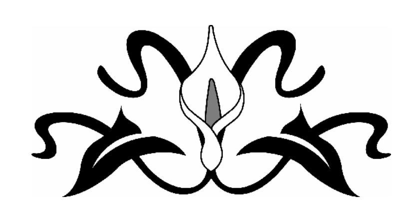
ولكن الأيام التي قضتها في بيت أمها، والصداقة الطفولية البريئة التي نشأت بينها وبين صالح آنذاك، والحياة شبه المشتركة التي كانا يحيانها معاً، بغضّ الطرف عما جرى أو يجري بين والدتيهما من خلافات ومشاجرات، قد بذر في قلب كل منهما بذور الحب الطاهر.. وقد نبتت هذه البذور مع الأيام ثم أزهرت تدريجياً عندما شب الاثنان عن الطوق ووصلا إلى المرحلة التي يميزان فيها بين (براءة) الطفولة و(حُب) الصبا والشباب.

لكن هذا الحب كان عذرياً بمعنى الكلمة، بل كان (سراً) بينهما إذ لم يكن يجرؤ أحد منهما على البوح به أمام أحد من الناس بسبب (ظروفهما) المعقدة، وقد تركا نتائجه ومصيره إلى الأيام..

* * *

ويحين موعد الامتحان لشهادة الدراسة الثانوية العامة في البلاد فيتقدم صالح كغيره من زملائه الطلاب والطالبات المتقدمين في الفرع الأدبي لهذا الامتحان.. كما تتقدم صفاء كغيرها من الطالبات والطلاب المتقدمين في الفرع العلمي للامتحان نفسه..

وقُدّر للاثنين أن ينجحا بمعدلات متفاوتة، فَيُسَرَّ بذلك الأهلُ وخاصةً أم صالح التي أبت إلا أن تقيم لابنها الأفراح وتطلق الزغاريد. أما وضحا فقد كان سرورها تعبيراً عن نجاح ابنتها فقط - وإن أظهرت للناس بأنها مسرورة بنجاح الاثنين معاً..



«١١»

لمَّا بانت نتائج الامتحان بشكل مفصل فيما بعد تبين بأن المعدل العام لصفاء أعلى من المعدل العام لصالح، وأن معدلها يخولها مواصلة تعليمها كمبتعثة على نفقة الحكومة.

وفعلاً تمت البعثة، وتقرر إيفادها كغيرها من الطلاب والطالبات المتفوقين. فكان نصيبها مع مجموعة من الطالبات لكلية العلوم بجامعة دمشق، حيث كانت الجامعات في الأردن حتى ذلك الوقت مجرد حلم في رؤوس المخططين، ولم تكن قد ظهرت إلى حيّز الوجود بعد..

أما أمر الموافقة على إلحاق صفاء بالجامعة من جانب أهلها وأقاربها فلم يكن بالشيء اليسير.. ذلك أنهم ما كادوا يسمعون الخبر حتى ثارت ثائرتهم وجن جنونهم..

فهم يسمعون عن الجامعة أشياء تتنافى وعاداتهم وتقاليدهم؛ فالتعليم فيها مختلط بين الجنسين مما يحاربونه ويمقتونه.. وكيف بهم يرسلون صفاء الجميلة إلى بلاد (الغربة) من غير رقيب أو محْرم؟

وبناءً على ذلك فقد انقسموا إلى فريقين اثنين: فريق لم يوافق

مطلقاً على إلحاقها بهذا الجحيم الذي يسمونه (جامعة) وأن تلغى هذه البعثة الملعونة.. وفريق آخر وافق على إلحاقها لكي لا تخسر صفاء بعثتها، ولكن شريطة أن يصحبها (محْرم) من أهلها وذويها، أو أن تتخذ لها سكناً مع بعض زميلاتها الأردنيات في بيت واحد..

ونجح رأي هذا الفريق الأخير، ولا سيّما عندما جاء دور صاحبة (المشكلة) نفسها في الكلام.. إذ ألْقت صفاء على نارهم المتأججة ماء بارداً بحجتها الدامغة في هذا الموضوع فقالت:

«لا أعرف لماذا لا توافقون؟! فالجامعة نعمة كبرى لمن يقدّرها. وهي صورة مكبرة عن المدرسة الثانوية غير أن الجامعة يكون فيها التعليم مختلطاً كما تسمعون.. ولكن.! لا يعني الاختلاط أن يتنازل المرء عن شرفه وأخلاقه وعاداته وتقاليده.. ناهيكم عن أن الجامعة ليست (بعبعاً) سيأكلني إذ لستُ (الأنثى) الوحيدة التي ستتلقى التعليم فيها، بل إن هنالك مئات الفتيات من جميع الأقطار العربية كأمثالي..

وبهذه المناسبة أود أن أذكّركم بأنكم تعرفون ابنتكم صفاء ومدى تمسكها بشرفها وتقاليدها، وحشمتها..

وإن فوزي بمنحة حكومية أمل يتمناه كل طالب وطالبة، بل إن كثيرين منهم من يحسدني عليها.. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحكومة الأردنية قامت باستئجار بناية كبيرة قريبة من الجامعة لسكنى الطالبات المبتعثات.. فلا خوف عليّ إذن ما دمت سأعيش مع زميلاتي في بيت واحد. كما سيكون لأبناء قريتنا الذين سيلتحقون بالجامعة - وخاصة صالح - الإشراف المُرضي عليّ..

وإن الزمن الذي كانت تعيش فيه الفتاة في بلادنا متقوقعة على نفسها ضمْن أربعة جدران في بيتها قد ولَّى إلى غير رجعة..

وقد تفتحت لها أبواب الحياة على مصراعيها، وأصبحت تشارك في النشاطات الاجتماعية المتعددة طبقاً لمسايرة التطور والتقدم، وجرياً وراء الحضارة في هذا العصر.. فلماذا إذن لا توافقون على ابتعاثي؟»،

وهكذا لم يستطع الفريق المعارض أن يبقى مصرّاً على اعتراضه ولاسيّما وهم قوم يتّصفون بالبساطة، لا يقرعون الحجة بمثلها أو أكبر منها، ولا الرأي برأي مثله أو أقوى منه.. وهم – فوق ذلك – عاطفيون إلى أبعد الحدود..

* * *

وأكملت صفاء إجراءات البعثة والسفر إلى دمشق خلال أيام. ثم سافرت هي وزميلاتها الطالبات من عمَّان ليلتحقن جميعهن بجامعة دمشق، كل في كليتها الخاصة بها.

أمَّا صالح فقد لجأ إلى أقاربه مستعيناً بهم لإقناع والده كي يلتحق بالجامعة على نفقة والده بعد أن فشل هو شخصياً من إقناعه..

كان رأي والده - المعطوف طبعاً على رأي زوجته وضحا - أن يطْرق صالح أبواب الوظيفة بدلاً من مواصلة دراسته، ثم ينتسب بعد ذلك (بالمراسلة) لإحدى الجامعات.

وقد برّر قوله هذا بأنه لا يملك المال الكافي لنفقات الدراسة الجامعية لأنه في حالة مادية سيئة في الوقت الراهن. وقال بأنه كان مؤملاً من ابنه أن يحتصل على معدل عال يخوله الالتحاق بالجامعة على نفقة الحكومة مثلما حدث لصفاء.

واجتمع وجوه القوم في بيت عايد.

وانقسم من في المجلس - كعادتهم - إلى فريقين: فريق مؤلف من صالح ومعه أكثر هؤلاء الوجوه، وفريق آخر مؤلف من عايد ووضحا

وبعض (الأنصار).

وطرحت (المشكلة) على بساط البحث.. فاشتد الجدل، وعَلا الصياح، واحتدَّ النقاش.

قال عايد موجهاً كلامه إلى الحضور:

«تعْلمون يا قوم بأن أسرتي كبيرة، أو بالأحرى هما أسرتان. وكلٌّ منهما بحاجة إلى نفقات كبيرة ومتطلبات عديدة يعجز عن توفيرها شخصان فكيف بشخص واحد مثلي وقد نفدَ مالي ولم يتبق لي سوى هذه البقالة وبعض الدونمات من الأرض، تلك التي لا يمْكنني التفريط بها أو بيعها بأي حال من الأحوال.

ما الذي يمنع صالحاً من أن يلتحق بوظيفة - وأبوابُ الوظيفة مفتوحة على مصراعيها لأمثاله - فيمدنا بجزء من راتبه، وبنفس الوقت ينتسب بالمراسلة للجامعة فنكون قد اصطدنا عصفورين بحجر واحد؟!».

فأجابه أحد الحاضرين(من فريق صالح):

«نحن نوافقك على بعض ما جاء في كلامك ولا نوافقك على

الباقي؛ فمثلاً إعالتك لأسرتين هذا صحيح مع اعترافنا بأن الرزق على الله. وبالنسبة لنفاد مالك ممكن أيضاً.. أما بالنسبة لإصرارك على حرمان صالح من تعليمه العالي وعدم بيع أرضك لهذا الغرض النبيل فهذا ما لا نوافقك عليه..

إن ابنك يا هذا شاب ناجح وذكي، فكيف تقف حجر عثرة في سبيل تعليمه؟ إن الوظيفة تقيده وتمنعه من التفرغ لدراسته كما لو يكون منتظماً في الجامعة. وقليلون يحالفهم التوفيق في الدراسة بالانتساب وينجحون سنوياً، إذ تمتد بهم المدة المقررة للتخرج إلى عدة سنوات. فهل جننت يا عايد؟

بع أرضك يا رجل، وعلّم ابنك فإنه سينفعنا وينفع بلده بعلمه إن شاء الله.. أما رأيت إلى صفاء - وهي الأنثى – تود بكل تشوّق أن تواصل تعليمها؟!».

ويبدو أن هذا الشيخ قد حرك عواطف الحاضرين وأثار مشاعرهم، فخشيت وضحا أن يجذبهم – بكلامه هذا - إلى صف صالح وفريقه، ولذا ردَّت على الشيخ بقولها:

«نحن يا عم غير متعجلين أبداً على تخرجه من الجامعة بعد أربع أو خمس سنوات مثلاً، لأنه لا زال شاباً في مقتبل العمر ويستطيع أن يضاعف الأربع أو الخمس السنوات إلى ثماني أو عشر سنوات.. لا يهمّ! إنما المهم هو أننا الآن بحاجة إلى (فلوسه) أكثر من حاجتنا إلى (دروسه).».

فآذت بكلامها هذا رجلاً آخر من الحاضرين (من فريق صالح).. وكان شيخاً عصبي المزاج، سريع الغضب، فأجابها:

«يا وضحا.! هذا كلام بعيد عن الحقيقة والمنطق.. لن نوافق عليه أبداً، ولن نسمح لك بإبداء رأيك في مثل هذه المواقف (الرّجالية).. لأنك (امرأة) ووظيفة المرأة في غير هذه الأمور التي تتعلق بالرجال وحدهم..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمن ذا الذي يصدّق بأنك تتكلمين في (مصلحة) صالح.. وأنْتِ أنتِ وضحا المعروفة بعدائها السافر لصالح وأم صالح؟!

ألا تخجلين يا هذه من حضور مجلس الرجال ومشاركتهم في

اتخاذ قراراتهم من غير دعوة منّا لك، على النقيض من أم صالح التي كان يتوجب عليها أن تشارك بدلاً منك لأن المسألة تتعلق بابنها.. ومع ذلك فلم تحشر أنفها، ولم تحضر اجتماعنا كما فعلتِ أنتِ؟ فما معنى هذا يا قوم؟ أجيبوني بالله عليكم!

ثقي تماماً يا وضحا أنه إنْ يرفض زوجك إلْحاق ابنه في الجامعة فسوف نتولَّى نحن الأمر فنرسله على نفقتنا بعد أن نقطع كل علاقاتنا بزوجك..

ألا يكفيك يا وضحا بأننا كنا نسكت دائماً على تحرشاتك بوالدته واستهتارك بنا؟

أو ما تعلمين بأن سكوتنا على تصرفاتك الخاطئة لم يكن عن جبن أو تقصير منا، بل كنا نظن بأنك ستكفّين يوماً عمَّا تقومين به من خطأ وتعودين إلى الصواب.. ولكنك لم ترعوي ولم تحترمي مشاعرنا باحترامك لضرتك، بل بلغ بك التطاول هذا اليوم أن تتدخلي بشؤوننا وتجعلي كلمتك فوق كلامنا.».

وهُنا نهض الشيخ غاضباً، فتداركه عايد وبعض الحاضرين

وأجلسوه بعد أن طيّب عايد خاطره ووعده بالموافقة على ما يقررونه في هذا الاجتماع..

أمّا وضحا فقد خرجت من المجلس بل من الدار كلها وتوجهت إلى بيت أهلها وهي ترغي وتزبد..

خرجت حاقدة لا على هذا الشيخ فحسب، بل على كل من في المجلس وفي مقدمتهم زوجها الذي أذعن لرغبتهم واستجاب لمطلبهم. وقد قالت لنفسها: سأنتقم منهم جميعاً وعلى رأسهم هذا الشيخ الذي جرح كبريائي وشمَّت بي الناس من أعدائي (وتعني أعداءها ضرتها أمينة ومَن في صفّها)...

«١٢»

وهكـذا ووفـق عـلى إرسـال صـالح إلى كليـة الآداب في جامعـة دمـشق بنـاءً عـلى رغبتـه لدراسـة الأدب العـربي.. وذلـك تحـت شروط أملاها والده عليه بحضور لفيف من أقاربه.

كان من ضمن تلك الشروط أن يقوم عايد بإرسال مبلغ من المال إلى صالح لا يتجاوز اثني عشر ديناراً شهرياً. وأنه يتوجب على صالح أن يجد ويجتهد، وأن تكـون نتائجه السنوية مكللة بالنجاح، أي أن لا يتخلـف أو (يرسـب) بنهايـة العـام الـدراسي مهـما كانـت الظـروف والأسـباب. فـإذا أخـل أو نقـض شرطـاً أيٌّ مـن الفـريقين فـسيكون (مسؤولاً) عن ذلك أمام الله والناس أجمعين..

فقبلَ صالح والحاضرون هذه الشروط القاسية مرغمين..

وبعـد انقـضاء أسبوع تجهـز صـالح للـذهاب إلى دمـشق. وعنـدما حـان موعـد سفره خـرج يـودع أقاربـه فـرداً فـرداً.. شـاكراً لهـم جهـودهم وحسن صنيعهم معه، واعداً إياهم بأنه سيبقى دائماً عن حسن ظنهم به من حيث المثابرة والجد والاجتهاد..

ثم ودع أباه وزوجة أبيه وداعاً لا يخلو من فتور.. ومال إلى أشقائه وشقيقاته فودعهم جميعاً بحرارة وبكاء..

ولما جاء دور والدته كان بينه وبينها موقف وداع خاص.. فقالت له والدموع تنهمر من عينيها:

«مع السلامة يا ولدي.. وفقك الله ورعاك. إنها سنوات لدراستك لن تطول يا صالح فتعودَ بعدها إلينا وقد حققتَ آمالك في هذه الحياة إن شاء الله..

خذ بالك من نفسك ومن دروسك يا ولدي، وزوّدنا دائماً برسائلك وأخبارك الجيدة السارَّة».

* * *

والْتحقت صفاء بكليتها - كلية العلوم - وأخذت تثابر وتواظب على دروسها.. وكانت قد اتخذت سكناها في دار الطالبات الأردنيات المبتعثات على نفقة الحكومة الأردنية كما أسلفنا.

وقد تزودت بمبلغ من المال ريثما يصلها استحقاقها من مبلغ البعثة البالغ عشرين ديناراً شهرياً.

وكانـت قـد أوكلـت أحـد أعمامهـا الـذي يتـسلم راتبهـا (الجـزء المخصص لها من راتب أبيها المتوفي) كي يقوم بتحويل هذا الراتب إليها بالإضافة إلى مبلغ البعثة المذكور.

كما التحق صالح بكلية الآداب - قسم اللغة العربية بعد استيفاء جميع الإجراءات المتعلقة بالقيد والقبول.

وقد استأجر سكناً له، بيتاً مفروشاً، أو قُل غرفة مفروشة لدى عائلة محترمة في حي شعبي.

وأخذ يواظب على دروسه كي لا يخيّب أمل والدته أو أقاربه به، ولا سيّما وقد وقفوا إلى جانبه وآزروه.

وكان قد تزود بمبلغ متواضع من المال جمعه له أبوه وبعض أقاربه.

* * *

وبعد انقضاء بضعة أشهر على الْتحاق صالح بالكلية شاءت له نفسه أن يسطر أو ل رسالة إلى (شخص ما) في قريته، ولاسيّما وهذا قريبه وزميله (أمين) الذي يتلقى معه دراسة الحقوق في الجامعة يود

اليوم أن يعود إلى الأردن لجمع مبلغ من المال كان قد وُعد به من قِبل والده عندما يتوفر لديه المال.

كان بمقدور صالح أن لا يبعث بأية رسالة هذه المرة - على الأقل -حيث باستطاعة أمين هذا أن يبلّغ أهل صالح بما يحتاج إليه شفوياً، ولكن صالح يريد أن يكتب.. وأن (يتخفف) من (الكابوس) الجاثم فوق صدره من سنوات.. وأن (ينفّس) عمَّا بنفْسه، وما يعتمل في فؤاده لأقرب المقربين إليه..

أرأيت حين تعصف بنا الهموم، وتضايقنا المشاكل والمتاعب أننا نلجأ إلى أقرب الناس إلينا نبثهم الشكوى، ونفرز ما بصدورنا من كبت وحرمان.. فترتاحَ عندئذ نفوسنا، ويزولَ ما بنا من همّ وغمّ، وضيق وقلق؟!

ذلك ما حدث لصالح بالضبط.! ولكن.!

لمن سيكتب الرسالة؟ ولمن سيبثّ شكواه؟

إنه إن يكتبها لأبيه مباشرة فسوف ينعته أبوه بالجحود والعقوق، إذ يعتبر هجوماً سافراً يشنّه عليه، وحينئذ ستكون هذه الرسالة

(حجة) على صالح عندما يتوقف والده عن إمداده بالمبلغ الشهري الذي اتُفق عليه، ولا سيّما وهو يعلم أن والده قد وضع شروطاً غريبة، وهو يفتش عن أوهى خيط لكي يدينه.

وهو ان يكتبها لأحد أقاربه فسيكون غضب والده عليه أشد إذا ما علم يوماً بذلك - وقد يعلم - لأنه يكون في هذه الحالة قد تجاهل وجود الوالد تماماً..

فقرر إذن أن يكتبها باسم أمه..

وهل له غير أمه يبثها الشكوى والشجون؟

وتذكَّر أمه - قبل سفرة - أوصته بأن يزودها بأخباره.. لكن أمه ليست بمتعلمة، ولا تحْسن القراءة والكتابة إطلاقاً.. فقال في نفسه: سأكتبها باسم أمي. فإذا ما وقعت الرسالة في يد أبي فلن يكون غضبه عليّ شديداً ولا (مكشوفاً) على الأقل..

وعندئذ سأكون قد توصلت إلى مرادي من مخاطبته بهذا الأسلوب غير المباشر فيطَّلع على جزء كبير مما أضمره في نفسي تجاه تصرفاته مع أمي أو معي..

وهو عندما يخاطب أمه فكلامه لها نابع من قلبه.. بلا (رتوش) أو (تزويق).. فتنصبّ كلماته حينئذ على أبيه وزوج أبيه حُمماً لاهبة، وقد يسرّي - بهذا – عن أمه ويطمئنها بإنجاز وعده عمَّا قريب عندما سينْصفها ممَّن ظلمها..

ذلك ما فكر به عندما كتب رسالته الأولى.. وهي الرسالة التي قدمناها في بداية القصة..

* * *

كان صالح قد أطْلع أميناً على فحوى الرسالة بحكم القرابة والزمالة من جهة، ولأن أميناً يعرف - بطبيعة الحال - جانباً كبيراً من مشكلة صالح.. من جهة أخرى.

قال أمين – بعد أن أطْلعه صالح على الرسالة:

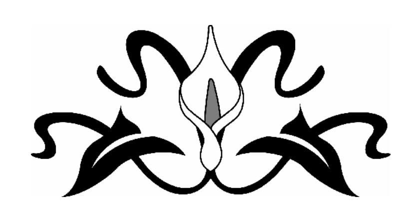
«كيف تريدني يا صالح أن أحْمل معي هذه الرسالة الغريبة ثّم أسلّمها لوالدتك وقد يكون والدك حاضراً آنذاك فتحْرجَني أمامه؟».

قال صالح: لا عليك! إنما أنت (ناقل) للرسالة فقط وليسْتَ مسؤولاً عن محتوياتها أو عن أية (نتائج) سلبية قد تحْصل بسببها».

قال أمين:«نصيحتي لك يا صالح أن تغيّر أسلوب الرسالة أو أن توجهها باسم أبيك».

قال صالح:«لم أكتب هذه الرسالة الغريبة إلاَّ بعد دراسة وافية للنتائج.. فأن أبيْتَ حملها فسأودعها صندوق البريد. ولكنْ.! إن كنتَ لا زلت تحمل في قلبك بعض الحب لي - بحكم الصداقة والقرابة ولكي تكتمل (الخطة) التي رسمتُها فأرجو أن توصِلَها وأكون لك من الشاكرين».

فما لبث أمين إلاَّ أن أذعن لرغبة صالح، فتناول منه الرسالة واعداً إياه بتسليمها إلى أم صالح مهما كانت العواقب.



«١٣»

عندما حضر أمين إلى القرية ذهب في المساء إلى بيت عايد. ولمّا لم يجد عايداً حاضراً في البيت سأل عنه الزوجتين فأجابتاه بأنه خرج لبعض شأنه ولا ندري متى سيعود إلى البيت.

عندئذ طمأنهما أمين عن أحوال صالح وصفاء. ثم أخرج من جيبه الرسالة وناولها لأمينة ذاكراً لها أن هذه الرسالة تخصها وحدها. فتناولتها أمينة وقبَّلتها بلهفة الأم وقالت:

«هل هذه الرسالة إلى والد صالح يا أمين؟».

فأجابها أمين:

«إنها لك أنت يا خالة.!».

فسألته أمينة مستوضحة – بسذاجتها المعهودة -:

«ولكن.! لمَ يا بني أرسلها لي وهو يعرف بأنني لا أقرأ ولا أكتب؟».

فقال لها أمين (مراوغاً ولا سيّما بعد أن رأى الدهشة قد عرت وجه وضحا أيضاً):

«أوَ ما طلبتِ منه يا أم صالح قبل سفره إلى الشام أن يكتب لك عن أحواله بعد وصوله؟..».

فقالت:«هذا صحيح.. الله يرضى عليه ويوفقه ويوفقك يا بني.! هيَّا اقرأ الرسالة أطال الله عمرك!».

وهُنا وقع أمين في حيرة.. إذ كيف سيقرؤها لها وهي رسالة غريبة كما قلنا، مكتوبة بألفاظ ومعاني مخصوصة وموجهة إلى (غرض) محدد؟!

ولكن.! ليس له إلاَّ أن يذعن لطلبها فيقرأ لها رسالة ابنها بحضور وضحا التي ساورها الشك في محتوى هذه الرسالة لَّما أن علمت بأنها مرسلة للأم وليس للوالد..

وبدأ أمين يلفّق كلمات من عنده - وهو يتظاهر بأنه يقرأ الرسالة- تتعلق كلها بالصحة والسلامة والعافية.. ولم يَنْس أيضاً أن يلفّق بعض السلامات والتحيات لوضحا وعايد وجميع أفراد الأسرتين.

حدث ذلك كله والوالدة تنهمر دموعها، فقال أمين في نفسه: مسكينة أنت يا أم صالح! كيف بك لو وقفت على حقيقة ما جاء في

الرسالة؟ لكأنّي بِكِ وقتئذ تصرخين بأعلى صوتك!!

أما وضحا فقد كانت تردد بعض أدعية التوفيق والنجاح المعروفة شاملاً ذلك كُلاً من صالح وصفاء.. وأمين أيضاً.

* * *

وفي الحقيقة، لو كانت أمينة تعرف محتوى الرسالة الحقيقي، أو كانت تدرك عاقبتها، وأنها ستكون مصْدر متاعب جديدة لابنها في يوم من الأيام.. لما دفعت بتلك الرسالة إلى زوجها عايد ساعة وصوله إلى البيت.. ولمزَّقتها أو أحرقتها أو خبأتها في مكان خفي.

ولكنها لم تكن تعرف.! ولذا، فقد دفعتها بلهفة الأم إلى عايد قائلة له ببراءة الأطفال السذج:

«هذه رسالة من صالح يا أبو صالح.. أحضرها أمين معه وقرأها علينا قبل قليل. ونريد أن تعيد قراءتها.. ألا تدري أنه من فرط حبه لي قد أرسل الرسالة باسمي؟.»

وسرعان ما فطنت لنفسها عند هذه الجملة الأخيرة وأدركت أنها (خرجت عن الخط) ولا سيّما وهذا عايد قد قطّب حاجبيه لمَّا أن علم

بأن الرسالة موجهة إلى الأم وليس له شخصياً.. فاستدركت أمينة تقول:

«إياك يا أبا صالح أن تتصور أنه يحبني فوق حبه لك! ولكنه كان قد وعدني قبل سفره أن يكتب لي رسالة خاصة بناء على رغبتي».

انصرف عايد لمطالعة الرسالة مطالعةً صامتة دون أن يصغي إلى حرف واحد ممّا قالته أمينة.. ولما فرغ منها تغير لون وجهه، وبدا الغضب في عينيه.. وأضمر في نفسه.. شيئاً ما..

فسألته أمينة: هل فيها غير ما ذكره لنا أمين؟

فعلم عايد أن أميناً قد أخفى حقيقة ما في الرسالة عن هاتين المغفلتين فأجابها بالنفي..

أما وضحا فقد ظنت في قرارة نفسها – حينما رأت تغيّر لون وجه زوجها - أن صالحاً يطلب مبلغاً من المال..

كان عايد يرسل شهرياً إلى صالح مبلغ اثني عشر ديناراً، وهو المبلغ المتفق عليه. واستمر يواظب على إرسال هذا المبلغ حتى الأشهر الثلاثة الأولى، فلما وقعت في يد ه رسالة صالح أخذ يُنقص المبلغ شيئاً

فشيئاً، ثم .. ببطيء تدريجياً في الإرسال إلى أن قطع المبلغ نهائياً قبل انتهاء السنة الجامعية الأولى..

ذلك ما كان قد أضمره في نفسه ساعة قراءته رسالة صالح.

وأخذ صالح يكتب لوالده طالباً إرسال النقود، مستفسراً عن سبب انقطاع المبلغ المخصص له. ولكن عايداً لم يرسل مالاً أو جواباً فأخذ هذا يستدين من جيرانه وزملائه، مؤمّلاً وصول المال قريباً. وكتب صالح آخر رسالة لوالده يقول فيها أن سينقطع عن الجامعة ويعود إلى القرية. فردّ عليه والده برسالة قال فيها إنه لن يرسل له مالاً بعد اليوم بسبب وقوعه في ضائقة مالية جديدة، متجاهلاً ذكر الرسالة، وعليه أن يتدبر أمره بنفسه فيعمل ويتعلم، أو فليعد إلى القرية إن شاء!!

فأخفى صالح جواب والده عن الناس، وصبر واحتسب ريثما تأتيه ساعة الفرَج..

ولكن ديونه تزداد يوماً بعد يوم.. فأصبح يقضي أكثر أوقاته في البيت..

وعجب الناس لما طرأ على أحوال صالح في الآونة الأخيرة.. وكان أكثرهم عجباً جيرانه وعلى رأسهم أبو فارس صاحب البيت الذي يقطنه صالح..

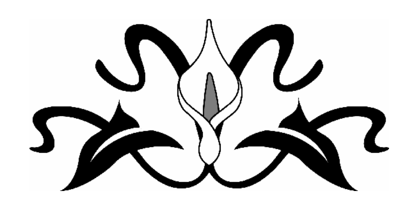
كان أبو فارس رجلاً طيب القلب، ويرى في صالح طالباً تبدو عليه سيماء الرزانة والأدب، فلمَ إذن قد صار اليوم إلى وضع لا يستطيع فيه أن يسدد جزءاً من المبلغ المستحق عليه؟ فهل يا ترى انضم إلى شلة من رفقاء السوء فأصبح مقامراً أو سكيراً مثلاً؟ لا بد من أن يستطلع الأمر ويعرف الحقيقة. فجاء إليه مستفسراً ومستنكراً. ويجيبه صالح بصراحة وصدق عمَّا وقع بينه وبين والده من سوء تفاهم سيزول قريباً إن شاء الله... ورجاه - بهذه المناسبة - أن يقدّر ظروفه فيمهله ويُنْظره في دَيْنه، وأن لا يغيّر الصورة التي يحملها عنه، فعسى أن تعود الأحوال إلى طبيعتها قريباً بإذن الله.

فما أن عرف أبو فارس حقيقة الأمر حتى سارع يطمئن صالحاً ويعده بدوام الإقامة في بيته؛ يأكل وينام ويمده بما يحتاج إليه من المال على شكل قروض إلى أن يفرجها ربنا على الجميع..

فيشتد خجل صالح عندئذ، ويقول في نفسه: «يا رب.! أبو فارس هذا في نظر الناس (غريبٌ) عني.. وأما عايد فهو في نظرهم (والدي) و (قريبٌ) مني.. ولكن.! أنت تعلم يا رب من هو (الأقرب) حقاً لي: أهو أبو فارس الذي وقف معي في ساعة العسرة أم عايد (والدي) الذي تخلَّى عني وتركني للأقدار؟!».

ثم يشكر صالح أبا فارس ويَعِده بردّ الجميل له مضاعفاً في المستقبل القريب إن شاء الله..

ثم كتب صالح رسالة إلى خال له في الأردن - شقيق أمه - وكان يعمل موظفاً حكومياً براتب متواضع وأسرة كبيرة، كي يمدّه ببعض العون المالي، فوافق خاله على اقتطاع مبلغ من راتبه - ولأجلٍ محدَّد - شريطة أن يكون هذا المبلغ المقتطع هِبةً لوجه الله تعالى وليس قرضاً أو ما يشْبهه.. نظراً لآصرة القربى وصلة الرحم.



«١٤»

قص صالح قصته على صفاء لَّما أن زارته مستفسرة عن أحواله. ولَّما عرفت الحقيقة أمدته ببعض المال، ثم وعدته بالمزيد من المساعدة الممكنة كلما سنحت لها الظروف.. ولم تنس أن توصي به جيرانه وأن تطمئنهم على (حَقِّهم) من صالح، وأن تشكرهم على عونهم له..

وعندما أكملت السنة الأولى بنجاح عادت إلى الأردن قبل عودة صالح..

وفي القرية، بل في بيت عايد نفسه ألقت بكل ما في جعبتها من سهام الغضب؛ فتكلمت مع أمها وضحا ومع عايد كلاماً غليظاً بشأن صالح لدرجة أن عرت الدهشة عايداً ووضحا.. ثم خرجت صفاء غاضبة، وذهبت إلى وجوه قومها وأطلعتهم على الموقف من جميع جوانبه..

فجاءوا إلى عايد وأنبوه لسوء تصرفاته إزاء ولده، ولإخلاله بشروط الاتفاق.. ولكن.. من غير جدوى.

فقرروا جمع مبلغ من المال تبرعاً منهم لصالح ساعة حضوره إلى

القرية ليعود بالمبلغ بعدئذ إلى الشام فيسدد ديونه وينفصل - مؤقتاً - عن الجامعة، ويبحث له عن وظيفة في الأردن، ويكْمل تعليمه الجامعي بالانتساب..

* * *

وبعد أسبوع حضر صالح إلى القرية بعد أن أكمل سنة دراسية على أعصابه. وكان تقديره بدرجة مقبول.

ووقعت بينه وبين والده مشادة كلامية حادة. قال له أبوه أخيراً: «اخرج من بيتي يا هذا، واركب رأسك فلستَ مني ولستُ منك.».

وخرج صالح من البيت وتوجه إلى أقاربه فحدثهم بالأمر فقالوا له: لقد علمنا عن طريق صفاء بكل ما جرى أو يجري معك. لقد جمعنا لك بعض المال، فعد غداً إلى سورية وسدد ما عليك من الديون، وبعدها سنفكر بالموضوع من حيث استمرارك بالدراسة أو الانفصال عنها.».

فشكرهم على صنيعهم، وفي اليوم التالي عاد إلى دمشق وفي جيبه مبلغ لا بأس به من المال، فاستغرب أبو فارس عودته السريعة من عطلته الصيفية. وعندئذ لم يجد بداً من أن يحكي له حكايته كاملة بعد

أن كان قد أخفى جزءاً كبيراً منها، فعجب هذا أشد العجب، ووعده خيراً. ولكنه لم يوافق على انفصاله من الجامعة، بل قر رأيه على أن يعمل في أيام العطلة الصيفية، وأن يستمر في تعليمه، بالإضافة إلى أنه لن يكفّ عن تقديم الأكل والسكنى له.

وأردف أبو فارس قائلاً لصالح:«هذه مسألة بسيطة يا بني.! فالدنيا لا زالت بخير، وعليك أن تعتبرني بمنزلة والدك لأنك في نظرنا أحد أفراد هذه الأسرة.. ولذا، يجب أن نتدبر أمرك اليوم فنبحث لك عن عمل خلال هذه العطلة الصيفية عسى أن تجمع لك مبلغاً يساعدك للسنة الدراسية القادمة».

ووجد له أبو فارس وظيفة كتابية في شركة لصنع الزجاج براتب شهري لا بأس به..

كما خصص صالح ما تبقى من وقت فراغه لإعطاء دروس خصوصية لبعض طلبة المرحلة الثانوية في الحي الذي يقطن فيه لقاء مبلغ معلوم، بتدبير من أبي فارس أيضا.

* * *

وتمضي الأيام..

ويحين موعد الدراسة للسنة الجامعية الثانية.. وكان صالح قد جمع مبلغاً متواضعاً من المال لقاء عمله في شركة الزجاج والدروس الخصوصية مما ساعده في دفع الرسوم وشراء الكتب المقررة وغير ذلك.

كما أن صفاء وفرت له مبلغاً يسيراً. ولم تكن تتوانى عن زيارته في كل سانحة. وقد قدمها لأبي فارس وأسرته على أنها ابنة عمه.. فرحبوا بها وهشّوا لها - من زيارتها الأولى لهم - حتى أَلِفتْهم وأَلِفوها.

وكانت صفاء هي أول (مشجّع) لصالح للاستمرار في دراسته مهما يلاقي من الصعاب والمشقات.. فكان يستمد من طموحها وعزيمتها وشجاعتها الأدبية ما يقوّي صبره ويزيد من تفاؤله وإيمانه.

وانتهت السنة الدراسية الثانية بنجاح لكل منهما... فرغب صالح في أن يمضي شطراً من عطلته الصيفية في قريته، فقد تشوق كثيراً لرؤية أمه وأشقائه وأقاربه..

كثيراً ما يكون الولد سرَّ أبيه، والبنت سر أمها كما يقولون. فهذا

صالح قد ورث عن أبيه حب المغامرة وإنشاء المشاريع الجديدة. ولكنهما وإن اتفقا في الوسيلة فلم يكونا متفقين في الغاية؛ إذ كانت غاية عايد من وراء كل مغامرة أو مشروع حُباَ في الشهرة أو جني الربح وزيادة المال..

أما صالح فكانت غايته من مغامرته التالية الحصول على المال كي يتسنى له إنهاء دراسته الجامعية.

ففي أثناء قضاء عطلته الصيفية في الأردن خطرت بباله فكرة افتتاح رابطة مؤقتة لمساعدة الطلبة الجامعيين الأردنيين المنتسبين بالمراسلة، وذلك لقاء أجور معيَّنة، وبترخيص من وزارة التربية والتعليم. فعرض الفكرة على أمين الذي بدوره عرضها على والده ليزوده بمبلغ من المال لتأسيس المشروع الذي لا يتطلب مبلغاً كبيراً ولا جهوداً كبيرة.. فما كان من والده إلاَّ أن وافقهما، وبعد أيام باشر الاثنان العمل.

كان الغرض من تأسيس الرابطة – كما قلنا - تسهيل أمور الطلبة الأردنيين المنتسبين أو الراغبين للانتساب للجامعات السورية

واللبنانية..

وقد فرضت طبيعة العمل عليهما أن يفتتحا لهما مكتبين: **الأول** في العاصمة الأردنية ويديره أمين، **والثاني** في العاصمة السورية ويديره صالح.

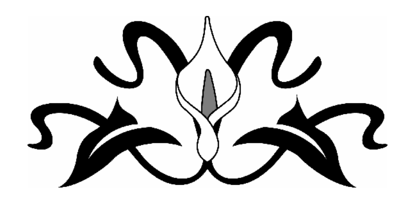
وقاما باستئجار غرفة من غرف أحد المعاهد الخاصة في كل من عمَّان ودمشق..

كان أمين يستقبل الطلبة في عمان ويقوم بتسجيل أسمائهم وأخذ أقساطهم الجامعية وبدل الأتعاب ثم يرسلها إلى صالح في دمشق ليتولى هذا تسجيلهم في مختلف الكليات المطلوبة.. وهكذا..

كان هذا المشروع موفقاً، إذ سجل بوساطته عدد كبير من الطلبة. واستطاع صالح بما جمعه من نقود، أن يواصل سنته الدراسية الثالثة بكل راحة ونجاح..

وأراد أن يستمر في هذا المشروع المرْبح لولا أن أميناً قرر إنهاءه بحجة أنه عمل مرهق، وأنه يود التفرغ بالكامل لسنته الدراسية الأخيرة..

ولذا، عاد صالح إلى عمله الصيفي في شركة الزجاج.. ويحين موعد بدء السنة الدراسية الرابعة دون أن يطرأ طاري يذكر، أو يجدّ جديد بالنسبة لصالح أو صفاء.



«١٥»

كان خطيب وإمام مسجد القرية رجلاً صالحاً.. وقد جاء - منذ سنوات - من قرية قريبة وتولَّى إمامة المسجد بعد أن رحل الخطيب السابق إلى قرية أخرى إثر نزاع دب بينه وبين أهل قرية عايد..

وعُرف عن هذا الخطيب (الغريب) حبه للناس، وسعيه للإصلاح بين المتخاصمين.. عملاً بما يوجبه الدين. فأحبه أهل القرية، سواء منهم المصلّون وغير المصلين.. ونشأت بينه وبينهم علاقات مودة وصداقة. وكنت تجده دائماً يعيش يومه لفعل الخير؛ فهو إما أن يعود مريضاً، أو يسلّم على قادم من سفر، أو يسعى للصلح بين متخاصمين، أو يحْضر حفلاً أو وليمة.. الخ.

كان يعرف – بشكل عام - ما يدور بين عايد وولده صالح من توتر في العلاقات، كما يعرف أيضاً ظلم عايد لزوجته الأولى (أم صالح). وكان كثيراً ما يعظ عايداً ويذكّره بالحلال والحرام والعدل بين الزوجتين – من موقعه كخطيب للمسجد - وكان عايد يحترمه ويستمع إليه ويعده ويطمئنه ويقول بأن الناس يكرهونه، ولذا فهم

ينقلون صورة مشوهة عنه ويبالغون في كلامهم ويعملون من الحبة قبة، وأنه ليست لديه مشاكل عائلية..(!!)

* * *

دُعي خطيب المسجد يوماً إلى وليمة في بيت أحد وجهاء القرية كما دُعي إليها كثير من الناس، ومن بينهم عايد..

وكالعادة، أخذ الناس يتحدثون في المجلس أحاديث شتى.. سأل خطيب المسجد عايداً: ما أخبار ولدك صالح يا أبا صالح؟ فأجاب عايد: أخبار الخير..

فسأله الخطيب ثانية: هل صحيح أنه على وشك التخرج من الجامعة؟

فأجاب عايد: إن شاء الله..

فقال الخطيب: صالح شاب ذو أخلاق عالية، يا ليت لدينا في المنطقة عشرات الشباب المثقفين كأمثاله لأنهم سيفيدون بلدهم ويخدمون أهلهم عندما يعيَّنون غداً موظفين في أجهزة الدولة..

* * *

عندما عاد عايد إلى بيته في المساء - بعد انفضاض مجلس الوليمة - وآوى إلى فراشه لينام استعصى عليه النوم وانتابه الأرق.. إذ وقعت كلمات الخطيب على أُذنيه كوقع المطارق فنبهته تلك الكلمات إلى (قيمة) الولد الصالح.. فهو كالثمرة المرجوّة بعد طول انتظار..

فكأنه كان في حلم - تلك السنين الماضية - فاستيقظ اليوم من حلمه.. فإذا كان الخطيب - على بُعده من درجة القرابة لصالح - يشيد بصالح وأمثاله، وينتظر تخرجه وزملاءه بفارغ الصبر فكيف بعايد - أبي صالح - يظل (بعيداً) عن ابنه.. لا لسبب إلاَّ لأنَّ وضحا و(ظروفاً أخرى معقدة) حالت بينه وبين ابنه وأمه؟!

وبدأ ضميره يؤنبه، فأخذ يتقلب في فراشه، ويراجع شريط الماضي بسرعة.. كل ذلك وزوجته وضحا إلى جانبه تغط في نوم عميق.. ولو كانت تعْلم ما يقلقه ويؤرقه لما استسلمت للنوم أبداً..

لقد أدرك عايد سوء تصرفاته مع أمينة وأولادها، وأصبح يفكر في أول خطوة يخطوها للتراجع عن غلطته بحقهم.. وشعر أن زوجته الأولى مظلومة، وأنه مقصّر في أداء حقوقها وحقوق أولادها أيما تقصير.. فأنحى باللائمة على زوجته الثانية وضحا، فهي رأس الداء

وسبب البلاء.. وأخذ يبكي.. كالأطفال.. فكأنه أراد أن يغسل خطأه بدموع الندم! وقد صوّر له خياله بأن ابنه صالحاً يصارع الأيام ويجالدها كمن يشق طريقه الصخري بفأس من خشب.. في الوقت الذي يملك فيه أبوه المال ولا يجود به عليه!

وفي الصباح الباكر نهض من فراشه وتوضأ وذهب الى المسجد – على غير عادته – لأداء صلاة الفجر جماعة، فأخذت الدهشة وضحا فسألته عمّا به فأجابها بغضب: لا شئ.! لقد هداني الله الى الصلاة في المسجد فهل تتدخلين أيضاً في شؤون عبادتي؟ وصفق الباب خلفه وخرج إلى المسجد.. وبعدئذ قرر أن يسافر إلى الشام دُون أن يُطْلع أحداً من الناس على قراره.. ثم فلتضرب وضحا رأسها في الحائط..

فسافر إلى دمشق وبجيبه مبلغ من المال.. وهناك لم يجد صعوبة في التعرف على منزل صالح وجامعته.. فكان بين الوالد وولده لقاء.. وأي لقاء.!

كان اللقاء مفاجأة لصالح، إذ عجب لمجيء والده على هذه الصورة الغريبة بلا سابق موعد.. فتصور أن في الجو شيئاً خطيراً، ولكنه أخفى دهشته وعجبه لينصرف إلى استقبال والده والحفاوة به،

وبخاصة على مرأى من جيرانه وزملائه، وفي قُطر غير قطره..

فاحتفى بمقدمه، واستدعى أميناً وصفاء وشلة من الطلبة الأردنيين إلى بيته، وقدّم له جاره أبو فارس كل عون في بيته من طعام وغُرف وحُسن ضيافة.. وكانت حفلتهم شيقة وامتد بهم السمر إلى ساعات الفجر الأولى..

* * *

وعندما انصرف الناس قدّم الأب إلى ابنه عذره عمّا بدا منه من (قصور) له ولأمه، وطلب إليه منذ الآن أن يمحو من ذهنه تلك الصورة القاتمة عن والده.. لأنه قد بدأ صفحة جديدة وحياة جديدة.

وعزا كل تصرفاته الماضية إلى عقدة نفسية عجيبة كانت قد أصابته بسبب إنهاء خدمته العسكرية ولفشله في المشروعات التي قام بها فيما بعد، ولمرضه العقلي.. ولم ينكر أن لوضحا باعاً طويلة في كل شر حدث..

ثم ناوله مبلغاً من المال لتسديد ديونه وتحسين أحواله..

وكانت هذه (المصارحة) الصادقة فاتحة عهد جديد بين الأب وابنه، و(انقلاباً) جذرياً في حياة الأسرتين فيما بعد..

ولبث عايد مقيماً في سورية أسبوعاً، حيث طاف به صالح على معالم الشام التاريخية، نظراً لجهل الوالد بها - إذ يزورها لأول مرة - فسحر عايد بجمال دمشق ونظافتها وتقدمها إلى جانب عراقتها وآثارها التي تدل على أمجادها..

وبعد ذلك قفل راجعاً إلى الأردن لتستقبله وضحا بغضب وازدراء - بعد أن افتقدته أسبوعاً - فيضرب بغضبها عرض الحائط ثم يصبُّ زيتاً على نار غضبها بقوله: لقد عدتُ اليوم من الشام بعد زيارة قمت بها للاطمئنان على أحوال صالح وصفاء وعلى سير دراستهما.

فسألته وضحا غاضبة: ولِمَ لمْ تخبرني بذلك قبل سفرك؟

فأجاب عايد: خشيت أن تقفي في طريق سفري..

فسألته وضحا: هل أفهم من هذا أنك عقدت صلحاً مع صالح؟ وكانت – بذلك - تلمّح إلى أن تذكّرة برسالة صالح القاسية، وتحاول أن تثير (كبرياءه) وأن توقظ شيطانه..

ففهمَ عايد ما ترمي إليه، وأراد أن يوقفها عند حدها بكلامه الفصل فقال:

لقد قررت أن أنسى الماضي، وأن أفتح صفحة جديدة مع صالح

وأمه وأقاربي الذين يكنّون لي البغض والكراهية بسبب ما ألحقناه من ظلم لأمينة وأولادها.. ولذا، فما عليك الآن إلاَّ أن تتْبعيني وتغيّري أفكارك السوداء، وإن لمْ تفعلي فليس لك مقام عندي، وإياكِ من مناقشتي في هذا الموضوع، فقد كدتُ أن أخسر نفسي من مناقشاتك والرضوخ لتعليماتك في ما مضى من السنين..

* * *

أذعنت وضحا لتهديد عايد ووعيده خوفاً من أن يطوّح بها فيطلّقها، وعندئذ يكون من الصعوبة أن تتزوج للمرة الثالثة..

وهل لها إلاَّ أن تتوقف عن تصرفاتها الخاطئة بعد أن رأت الرياح تجري بما لا تشتهي سفينتها؟!

لقد تيقنت الآن أن زوجها قد غيّر مسيره من الطريق الذي رسمته له فيما مضى، ولا سيّما بعد أن رأى فلذة كبده قد شق طريقه واقترب من الوصول إلى هدفه، حيث سيتخرج من الجامعة قريباً ويصبح في عداد (الموظفين) الحكوميين غداً. فآثرت الصمت المؤقَّت – على الأقل -. ولم تجد بداً من السير مع الركب الذي سيقوده رب العائلة..

«١٦»

أنهى صالح السنة الرابعة (سنة التخرج) بتقدير جيد.. واحتصل على شهادة الليسانس في الآداب - قسم اللغة العربية.

كما أنهت صفاء السنة الرابعة أيضاً (سنة التخرج) بتقدير جيد جداً. واحتصلت هي الأخرى على شهادة الليسانس في الرياضيات.

وأقيمت لهما الأفراح والحفلات.. وأبى أكثر الأقارب إلا أن يكْملوا لهما الفرحة بعقد قرانهما.. وارتأوا تأجيل الزواج إلى ما بعد حصول كل منهما على وظيفة..

وكانت أبواب الوظيفة بالنسبة لصفاء مفتوحة على مصراعيها، حيث كانت ملزمة بالخدمة في جهاز وزارة التربية والتعليم كمدرّسة في مدارسها لمدة ثماني سنوات تكون في حل بعدها للبقاء في وظيفتها أو الاستقالة منها..

أما صالح فقد عيّن مدرّساً في إحدى المدارس الثانوية في اللواء.

وبعد انقضاء شهور قليلة على تعيينهما، ولمَّا أن هيَّآ شؤون الزواج دخلا عش الزوجية الهنيء محققيّن بذلك (الأمل) المنشود الذي طالما

حلما بالوصول إليه..

ولم ينسيا جميل أبي فارس.. ذلك الرجل الدمشقي الوفي الذي وقف إلى جانب صالح في أيامه العصيبة الماضية؛ فقاما بزيارته وكافآه وأسْرتَه بما هم أهل له..

ثم اشتركا أخيراً في تنقية (الأجواء) المشحونة في أسرة عايد، وفي القرية أيضاً.. فأصلحا بين المتخاصمين، ووفقا بين الجميع بكل ما أوتيا من لباقة وكياسة و(دبلوماسية) في هذا الشأن.. وشاركهما في حركة الصلح مثقفو ووجهاء القرية..

* * *

وهكذا استسلمت وضحا (للواقع) الذي لم تكن تتوقعه يوماً ما..

إذ لم تكن تتوقع أن تقع ابنتها صفاء في حب صالح.. ابن ضرتها اللدود، ويتزوج بها أخيراً..

ولم تكن تتوقع أيضاً أن (يعود) عايد إلى أمينة (ضرتها) أو إلى ابنها صالح..

ولم تكن تتوقع أيضاً لصالح أن يوفق هذا التوفيق السريع فينجح

في دراسته الجامعية ويلتحق بوظيفة..

ولم.. ولم ..

إذ ذهبَ كل ما زرعته من بذور (التآمر) والظُلم والشر أدراج الرياح.

وعرفت أن الظُلم ظلمات، وأن الباطل زاهق، وأنه في آخر الأمر لا يصح إلاَّ الصحيح..

وآنَ لها أن تستسلم، وأن تلقي سلاح الفتنة والحقد وأن (تجامل) الجميع، وأن تعيش في (صلح) مع نفسها، ومع زوجها، ومع ضرتها، ومع الناس أجمعين..

* * *

وعادت المياه إلى مجاريها في أسرة عايد.. بل أُسْرتيْهِ.! وعادت القلوب المتنافرة إلى الألفة والمحبة والوئام.. وعاشوا جميعاً بسعادة وخير وسلام.

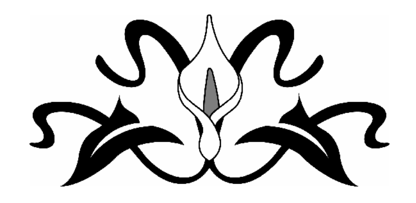
المؤلف

- ولد أحمد حسن القضاة في بلدة عين جنَّة بمحافظة عجلون في الأردن في١٥ /١١ /١٩٣٨م.
- بكالوريوس في الأدب الإنجليزي.
- من شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.
- عمل موظفاً في الدوائر الحكومية في الأردن، كما عمل مترجماً في الشركات الأجنبية العاملة في الرياض بالسعودية.
- نُشر نتاجه الأدبي في الصحف والمجلات المحلية والعربية منذ خمسة وأربعين عاماً ونيّف.
- في طفولته، وقُبيل التحاقه بالمدرسة الحكومية النظامية تعلّم في كتّاب(*) القرية القراءة والخط والحساب وتلاوة وتشكيل وتجويد القرآن الكريم إلى جانب حفظ أجزاء من كتاب الله تعالى ممّا حبّب إليه اللغة العربية وكان له الأثر الأكبر في تمكنه من اللغة، ثم صُقل فيما بعد، في دراسته الأكاديمية وفي قراءاته

(*) الكُتّاب: يقابله اليوم الروضة وشتّان بين الاثنين.

المكثفة في كتب اللغة والدين والأدب.

- بحوزته من تأليفه أربعة عشر ديواناً شعرياً ومسرحية شعرية، وثمانية كُتب نثريّة، بين مخطوطة ومطبوعة.



عنوان المؤلف

عمَّان – الأردن

هاتف: أرضي/ ٠٦ – ٥٣٣٩٠٥٨

خلوي/ ٠٧٧٧٢٨٣٧٠٥

E- mail- alqudahahmed@yahoo.com

